فتح قبرص صفحة مجد
في سجل التاريخ

إعداد
أ.د/ عبد الرازق الطنطاوى القرموط

فتح قبرص صفحة مجد فى سجل التاريخ

أولاً: لمحة عن قبرص:

تعتبر قبرص بموقعها الجغرافى مركزاً تجارياً وحربياً ممتازاً، بجانب خصوبة أرضها ووفرة غلاتها المعدنية والزراعية والحيوانية، لذلك ظهرت أهميتها منذ قديم حيث استعمرها الفينيقيون طمعاً فى نحاسها الذى سميت به فى اللاتينية، وقد ظلوا بها زمناً حتى غزاها الملك تحتمس الثالث سنة ١٥٠٠ ق.م، وجعلها جزءاً من امبراطوريته، ثم سيطر عليها الآشوريون. وبعد مرة اختلسها الفرس، ثم الإسكندر المقدونى الذى اتخذها مركزاً أو قاعدة لتأمين وتموين جيوشه الزاحفة من أوربا، ثم خضعت للبطالمة فالرومان.

ولما قسمت الدولة الرومانية سنة ٣٩٥م كانت قبرص من ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية وبعد ظهور الإسلام، واتساع دولة المسلمين أدركوا أهمية قبرص لعاصمة الدولة البيزنطية التى يزمعون فتحها، فقد كانت هذه الجزيرة محطة إمداد وتموين للأسطول البيزنطى كما أنها مصدر تهديد لساحل الشام الخاضع لنفوذ المسلمين[١].

ونتيجة ذلك طلب معاوية بن أبى سفيان والى الشام من الخليفة الفاروق عمر رضى الله عنهما الإذن له بالتوجه لفتحها، ولظروف الدولة وقتها، وحرص الخليفة على المسلمين وحياتهم لم يأذن له. فلما كان عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥هـ) أعاد معاوية الطلب، فأذن له الخليفة شريطة ألا يكره الناس على ركوب البحر، فأخذوا إلى الشام يعدو العدة ثم أبحرت سفن[٢] الأسطول الإسلامى فى شتاء ٢٨هـ/ ٦٤٩م، تعبر عباب البحر المتوسط إلى قبرص، وقد عرضوا الإسلام على أهلها فرفضوا قبوله، فما كان منه إلا حصار

---

[١] المؤلف بحث تحت عنوان "مع الأساطيل الإسلامية فى قبرص" نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط - ا-عدد الرابع ١٤٠٤هـ. وهذا البحث استكمالاً له.

[٢] قيل عدد السفن ١١٧ سفينة كان على راسها معاوية وزوجته فاخته، وأبو ذر الغفارى، وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس، وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم.

قنسطانطيا عاصمة الجزرة الواقعة فى الشاطئ الشرقي والاستيلاء عليها، وأخذ المسلمون فى التقدم نحو المدن الأخرى فطلب الناس الصلح الذى تم على شروط أهمها دفع جرية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار، وإطلاع المسلمين على أى إخطار لأخذ الحيطة والحذر وعدم تقديم المعونة لأعداء المسلمين.

وقد عاد المسلمون بعد إبرام الصلح إلى دمشق. وقد سجلوا أول عبور ناجح نحو أوربا- الذى سيستمر إن شاء الله- وقد رفع هذا التصرف الروح المعنوية للمسلمين، وأزال مخاوفهم من ركوب البحر.

ولما علم معاوية بسياسة قنسطانس نحو الجزيرة أرسل اليها حملة أخرى سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م، يتكون من خمسمائة سفينة[1]. فلما سمع بها اهل الجزيرة هربوا فى الجبال، وركب البعض البحر طلبا للنجاة، فبسط المسلمون نفوذهم عليها بعد نقض أهلها لعهدهم السابق. وقد ألزم معاوية أهل الجزيرة بدفع التزاماتهم المالية وغيرها، وهيأ الإقامة بها لقوة نظامية من جند المسلمين، ولجماعات من بعلبك وظلوا بها حتى قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ - ٦٦١م، بل ظلوا بها مدة حيث عادوا فى عهد يزيد بن معاوية نتيجة اتفاقه مع البيزنطيين.

ولما كانت خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ، ٦٨٥-٧٠٥م) شهدت علاقته مع البيزنطيين توتراً، لاستيلائهم على الجزيرة نتيجة الظروف التى مرت بالدولة قبل ولذلك تم الاتفاق بين عبد الملك وجستنيان الثانى على تقسيم الضريبة التى يدفعها أهل قبرص بين الدولتين، وظل الموقف بين شد وجذب فى الجزية حسب حالة الدولة الإسلامية. فلما كان العصر العباسى رد أبو جعفر المنصور أهل جزيرة قبرص إلى اتفاق معاوية للتخفيف عن سكانها وفى عهد هارون الرشيد (١١٠-١٩٣هـ، ٧٨٦-٨٠٩م) أرسل عدة سفن إلى قبرص سنة ١٧٤هـ-، وفى سنة ١٩٠هـفى عهد نقفورفوقاس أرسل حميد بن معيوف الهمذانى اليها، فأعمل الهدم التخريب لتذبذب موقفها من المسلمين، وقد أسر عدة

---

[1] البلاذرى: فتوح البلدان ص١٨١.

مئات كان من بينهم أسقف الجزيرة، الذى بيع بألفى دينار[١] ولذلك تحسن المرقف فرد الرشيد الأسرى إلى بلادهم دون فدية.

ومع ذلك تأرجحت العلاقة فترة من الزمن، فلما وقعت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين حول أقريطس[٢] سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م. كلف الامبراطور البيزنطى جوليو السادس نائبه فى قبرص همريوس بمنع اتصال المسلمين بكريت عن طريق سواحل الشام، فاعتبر المسلمون ذلك منافيا للإتفاقيات المبرمة بينهما، لذلك توجه إليها أسطول اسلامى سنة ٢٩١هـ لإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها. وقد ظل الوضع حتى غزاها نقفور الثانى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م ومما كل أثر المسلمين فيها بعد أكثر من سبعين سنة غلب عليها المسلمون.

لم يفكر المسلمون فى استرداد السيطرة على الجزيرة زمناً طويلاً لدواعى سياسته وانقسامات وخلافات. حتى زمن الحروب الصليبية حيث غزاها ريتشارد ملك انجلترا وهو فى طريقه إلى الشام فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٩١م وعين عليها كامفيل وروبرت ترتهام على أن يمداه بالمؤن والدقيق والنبيذ وغيرها وإن أدرك بعد مدة عبء حمايتها فباعها للفرسان الواوية بمبلغ ألف بيزانت[٣]. دفعوا ستين ألفا وتعهدوا بدفع الباقى فيما بعد، ولعجزهم عن الاستمرار فيها عادوا فى اتفاقهم وطلبوا استعادة ما دفعوا فعرضها ريتشارد على جاى لوزجيان ملك مملكة بيت المقدس، فوافق نظير تنازله عن حقه فى المملكة، فصارت قبرص منذ ذلك الوقت تحت حكم هذه الأسرة مدة ثلاثة قرون تقريبا، كانت خلالها معادية للمسلمين، عد الصليبين فى الشام بالمال والعتاد والرجال،

---

[١] ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص١٣٦، بحث المؤلف ص٢١٨-٢٢١.

[٢] للمؤلف بحث تحت عنوان: الربضيون فى الاسكندرية" يتناول موضوع اقربطس (كريت) نشر فى مجلة كلية البنات الاسلامية باسيوط العدد ١، ٢.

[٣] الواوية: اسم أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان المعبد التى أسسها هيودى بنر سنة ١١١٩م/ ٥١٣هـ لحماية طريق الحجاج النصارى، ثم تحولت إلى جماعة حربية لعبت دوراً فى الحروب الصليبية.

وكانوا واسطة بينهم وبين بقي الأوربيين، وقد اهتموا بشئونها وصبغوها بالنصرانية المتعصبة فقد استولوا سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م على عدة سفن مصريةواسروا من فيها. فأرسل الملك العادل إلى حنادبرين الوص على سلكة بيت المقدس التوسط فى إعادة الأسرى فاعتذر. فما كان من العادل إلا حصار عكا حتى اضطروا إلى حل مسألة أسرى المسلمين فى قبرص. ومع ذلك ظلت معاوية للأيوبيين حتى نهاية دولتهم (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م).

ثانيا: العلاقة بين المماليك وقبرص قبل عصر برسباى:

أعقب فشل حملة لويس التاسع على مصر قيام دولة المماليم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وفى نفس الوقت اشتدت غارات القبارصة على مصر وممتلكاتها، وكذلك تقديم العون المتواصل للصليبين فى الشام، ذلك أنه فى الفترة المتاخرة من الحروب الصليبية لم يأت الدعم من الغرب الأوربى -كما كان- وإنما كانت تقوم به أسرة لوزجنان فى قبرص. ففى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وعلى وجه التحديد سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م قام الظاهر بيجوم كبير بيجوم كبير على القوى الصليبية فى بلاد الشام، فأسرعت قبرص بتقديم نجدة لهم مكونة من ألف ومائة فارس[١] وقد وصل المدد متأخرا بعد أن استرد بيبرس قيسارية وحيفا وأرسوف، واغارت القوة القبرصية على طبرية، ثم عادت إلى عكا[٢] ولما آلت مقاليد الأمور فى مملكة بيت المقدس وقبرص إلى الملك هيو الثالث، اتخذ موقفا متشدداً من المسلمين باعتباره ملكاً على أكبر مملكتين صليبيتين، لذلك نراه يأمر بالقبض على رسل الظاهر بيبرس وهم فى طريقهم إلى سلاجقة الروم عن طريق قبرص رغم الأمان المعطى لهم[٣] كما قامت سفن قبرص بالاعتداء على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط[٤].

---

[١] الكامل فى التاريخ ج١٣ ص٤٩.

[٢] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٤٩٧، ٥٤٧.

[٣] السلوك ج١ ق٢ ص٤٨٥.

[٤] ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥٧.

وفى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م أغار إثنا عشر مركبا قبرصيا على الاسكندري ودخلت ميناءها فأخذ القبارصة مركبا تجاريا وأستولوا على ما فيه وأحرقوه، ولم يجسر والى الإسكندرية أن يخرج الشوانى لغيبة رئيسها فى مهمة استدعاه لها الظاهر[١].

وكان رد فعل بيبرس استدعاء بعض زعماء الصليبيين بالشام ومعاقبتهم لغدر ملك قبرس. وحملهم مسئولية أفعاله، وتهدده ولم يكتف بذلك بل أخذ يعد العدة للثأر منها، واستغل خروج ملكها إلى عكا فأرسل أسطولاً مكونا من سبعة عشر شينيا فيها الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم رئيس الاسكندرية، وشرف الدين علوى العسقلانى رئيس دمياط، وجمال الدين مكى بن حسون مقدماً على الجميع فوصلوا الجزيرة ليلاً، فهاجت عليهم ريح طردتهم عن المرسى وألقت بعض الشوانى على بعض فتحطم منها أكثر من أحد عشر شينيا، وأخذ من فيها من الرجال والصناع أسراء، وكانوا زهاء ألف وثمانمائة نفس وسلم الرئيس ناصر الدين وابن حسون فى الشوانى السالمة وعادت إلى إلى مراكزها. فعظم ذلك على الظاهر بن بيبرس إلى الغاية وأرسل ملك قبرص يخبر السلطان بذلك فكتب إليه رسالة مملوءة بانتصاراته[٢] واسفر الموقف فى النهاية عن عقد صلح مدته عشر سنوات فهدأت الأمور إلى حين بين الطرفين.

ولما توجه السلطان قلاوون لحصار طرابلس فى صفر سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م أرسل هذى الثانى ملك قبرص نجدة لها على رأسها أخوه عمورى ومع ذلك استرد المسلمون المدينة[٣] وفكر قلاوون فى استرداد عكا واستعد لها ولكن المنية عاجلته، فأكمل هنرى الثانى ملك قبرص المهمة المقدسة. ونشير إلى الدور الكبير الذى قام به هنرى الثانى ملك قبرص فى نجدة المدينة بأعداد كبيرة من الرجال والمؤن وإمدادات كثيرة، جعلت الصليبين من شدة فرحهم يوقودون النار

---

[١] النجوم الزاهرة ج٧ ص١٤٩.

[٢] نفسه وانظر عقد الجمان ج٢ ص٧٢-٧٦ تحقيق محمد أمين.

[٣] راجع فتوح النصر لابن بهادر ج١ ص ١٦٣ مخطوط.

ابتياجا بنجدة قبرص. وقد تولى هنرى قيادة المقاومة فى عكا ولكنه فشل فى النهاية واستردها المسلمون[١].

وكان رد فعل هنرى الثانى بعد هروبه من عكا إلى قبرص فتح أبوابها أمام الصليبيين الهاربين من الشام ودعوة البابوية لإثارة أوربا فى حرب صليبية عامة ضد مصر والشام. وقد عرض عليه القيام بالهجوم المتكرر على السواحل المصرية والشامية عدة سنوات متصلة لإضعاف قوتها ومقدمتها. وضرب حصار بحرى حول دولة المماليك تمهيدا للحملة المرتقبة. وأراح الله المسلمين من مشروعه بموته ١٣٢٤م/ ٧٢٥هـ وان قام خليفته هيو الرابع بعدة حملات على شواطئ دولة المماليك، ومطارة التجار الأوربيين المتعاملين مع مصر، والذين لم يكترثوا لنداءات البابا بتحريم التجارة مع المسلمين.

ولم يتوقف دور قبرص فى العداء انسافر ضد المسلمين بل استمر حتى عهد الأشرف شعبان بن حسين الذى تسلطن سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م فاشتركت قبرص فى أكبرحملة بحرية ضد الاسكندرية، ونحاول توضيح هذه الحملة لما ترتب عليها من آثار ونتائج واضحة.

حملة بطرس الأول:

ورث بطرس عرش أبيه هيو الرابع وأظهر تعصبا ضد المسلمين لا مثيل له فى عصره، فقد شق حربا فى فلسطين لاستخلاصها من المسلمين كما عمد إلى زعزعة دولة المماليك، فامتلأ عهده (١٣٥٩-١٣٦٩م، ٧٦١-٧٧١هـ) بسلسلة من الحروب ضد المسلمين. وكان من أهمها الحملة على الاسكندرية التى جمع لها الكثير من القوات بعد توقف الحكام الأوربيين عن مناصرته. وقد جمع حوالى مائة خمس وستين سفينة مختلفة الأشكال والأحجام فى رودس[٢]، ثم فكر فى اختيار

---

[١] النجوم الزاهرة ج٨ ص٦.

[٢] يذكر المقريزى أن البنادقة ٢٤ غرابا، ومن الجنويين غرابان، ومن أهل رودس عشرة أغربة ومن الفرنسيين خمسة أغربة، وبقية الأغربة من أهل قبرص. السلوك ج٣ ق١ ص١٠٧.

المكان الذى يقصده بحملته فنصحه أحد خاصته بمهاجمة الاسكندرية وقت صلاة الجمعة، فاقتنع بعد تفكير.

ويحدد النويرى عدة أسباب لهذه الحملة منها تشدد الصالح بن الناصر محمد ضد النصارى سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، ورفضه طلب بطرس للتوجه إلى صور ليجلس على عمودها كعادة من سبقه، والأمر الثالث ما وصل اليه من ضعف الحاميات المصرية فيها[١]. هذا بجانب رغبته فى السيطرة على التجارة فى البحر المتوسط.

وقد طلب بطرس من أخيه حنا بقبرص أن يتخذ الاحتياطات اللازمة بمنع أى سفينة من مغادرة قبرص حتى لا تصل أخبار الاستعدادت إلى المصريين. كما لم يعلن بطرس عن نيته إلا بعد تحرك الحملة وهى فى عرض البحر.

وللأسف فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الاستعدادات الجدية كان الأمر على النقيض فى مصر والاسكندرية، فشعبان بن حسين كان فى الثالثة عشرة من عمره، والأمور كلها بيد يلبغا السالمى مقدم العساكر ولم تكن تصرفاته وظروفه متوائمة مع التطورات، كما أن نائب الاسكندرية (صلاح الدين بن عرام) كان يؤدى مناسك الحج ولم يكن نائبه على دراية بأحوال البلد، أو على معرفة بالمقاومة لذلك لما وصلت الحملة الصليبية إلى الاسكندرية يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧هـ/ ٩ أكتوبر ١٣٦٥م ظنها المسلمون سفنا تجارية وساعد على ذلك استكانة السفن المغيرة هذا اليوم.

لذلك أوجس الناس خيفة واستولى الرعب عليهم[٢] حين أدركوا حقيقة الموقف. وأخذوا فى الاستعداد للدفاع عن الاسكندرية ضد المعتدى الاثيم، فأمر جنفر نائب الوالى إغلاق أبواب المدينة واستدعى عربان البحيرة للمساعدة وشحن

---

[١] راجع الإلمام بما جرت به الأحكام ج١ ص٢٨٦ - ٢٩٤، مخطوط رقم ٤١٩٣ تاريخ وفيه إشارة إلى أسباب أخرى كمساعدة شمس الدين بن غراب الكاتب فى ديوان الإسكندرية وغيرها.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ق١ ص١٠٦

القلاع بالجنود والرجال وكان هدفه منع الغزاة من النزول إلى البر، ولكن لعدم الخبرة عند النائب والحشد غير المنظم والاضطراب داخل المدينة والخوف والهلع كل ذلك سيكون له أثر سيئ بلا شك على تطور الأمور بالثغر.

لقد بدأ الهجوم الصليبى على الاسكندرية يوم الجمعة وذلك بدخول السفن الغازية الميناء الغربى[1] مستعدة لاقتحام المدينة وقد أغرى بطرس من يقتحم الأسوار بجائزة نقدية. الأول ألف فلورين ذهب والثانى خمسمائة وهكذا، وكان ذلك مشجعا للصليبين على بذل الجهد لاقتحام الأسوار وفتح الأبواب والدخول إلى المدينة الحصينة.

وقد كان، فقد أدرك المعتدون ضعف سور المدينة، ثم أمطروا العربان بوابل من السهام فتخاذل الجند المدافع وابتعد عن الأسوار وارتحل بعض الناس عن المدينة التى اضطربت أمورها حتى لقد تزاحم الناس على الأبواب هربا من المدينة فمات منهم المئات من شدة الزحام[2]. واستلأت الحقول والقرى المجاورة بأهالى الاسكندرية.

هذا كله بلا شك مع سوء تدبير النائب جنغرا وعدم معرفته بوسائل المقاومة أو تنظيم القتال واستبداده برأيه[3] قد افسح المجال للقوات الغازية فى اقتحام المدينة حيث لم تجد مقاومة تذكر لها ففى نهاية نهار الجمعة كانت نهاية المقاومة وبداية سيطرة الصليبين على المدينة، فعاثوا فيها فساداً وتخريباً حتى أتوا على كل شئ فيها. فقد أغاروا على الفنادق والمساجد وسلبوا ودمروا كما تعرضت الكنائس كذلك للتدمير ثم دخلوا المنازل فإذا لم يبادر أهلها بتقديم ما يقتنونه من الأموال والذخائر

---

(1) كانت السفن التجارية غير المصرية ترسوا بالميناء الشرقى لتفريغ حمولتها أو لتعبئتها. ولم يسمح لها بالرسو فى الميناء الغربى خوفا من التوجه نحو الداخل.

(2) النويرى ج٣ ق١ ص١٠٦.

(3) انظر: الإلمام بما جرت به الأحكام ج١ ص ٣١٥.

كان مصيرهم القتل[١] وتمادوا فى القتل والتخريب والتدمير. وبلغ من وحشية الغزاة أنهم كانوا يقتلون المرأة ويذبحون ابنها على صدرها.

وظلوا على هذا السفك والتخريب والتدمير عدة أيام كانت أسوأ أيام مرت بالمدينة لم يفرق الغزاة بين مسلم لأو نصرانى ويهودى كما لم يفرقوا بين ممتلكات أحدهم عن الآخر، فقد أحرقوا فنادق الكينلان والجنويين وفندق المورة وفندق المارسيليين كما كسروا حوانيت التجار ونهبوا حوانيت الصاغة والقمش والحرير والنسيج وغيرها.

ويذكر المقريزى أن الفرنج كانوا يستدلون على بيوت ودور الأثرياء عن طريق التجار الفرنج الذين دلوهم على الخبايا والمكنونات فنهبوها[٢].

وكانوا ينقلون ما يحصلون عليه إلى سفنهم وقد أتوا على كل ما فى المدينة من صامت وناطق وظلوا يقتلون ويأسرون ويسبون وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة إلى بكرة نهار الأحد فرفعوا السيف وظلوا فى السلب والنهب حتى يوم الخميس ٢٨ من المحرم، ثم أقلعوا ومعهم خمسة آلاف أسير فكانت إقامتهم ثمانية أيام[٣].

كان هذا السلب والنهب والتخريب يقع وأولوا الأمر بالقلعة لم يعرفوا به إلا يوم السبت ٢٣ من المحرم، وحتى الأمير يلبغا لم يكن متاكداً منه، وزعم أن الأمر مكيدة من أعدائه وخصومه وقال: إن القبرصى أقل وأذل من أن يفعل ذلك، ولكنه تأكد بوصول بعض الهاربين إلى القاهرة فأسرع على الفور بالتوجه إلى الاسكندرية دون ترتيب أو تعبئة[٤] وكان عدد من معه كثير، فما أن سمع بطرس بتحركه نحو الاسكندرية وأنه لا يمكنه الصمود له آثر العودة بما غنمه وأسره دون الاشتباك مع المصريين.

---

(١) راجع تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٧٤٧.

(٢) السلوك ج٣ ق١ ص١٠٦

(٣) نفسه ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٤) النجوم الزاهرة ج١١ ص٢٩.

ولما وصل يلبغا إلى الاسكندرية وشاهد ما حل بها من خراب ودمار وشاهد ما آل إليها أمرها من الحريق والهدم وعاين جثث المسلمين وقد انتفخت واسودت بكى بكاء شديداً وأمر بدفن الشهداء وترميم التخريب واصلاح شأن المدينة ثم أعلن الثأر من الفرنج لهذه الأعمال الوحشية.

وكان أن أصدر أومره أولا بالقبض على كل التجار الفرنجة الذين بقوا بالاسكندرية، ثم سبقوا إلى القاهرة مشاة حفاة فى قهر وذلة ونكال وخزى، كما قبض على كثير من النصارى فى مصر والشام وألزمهم بأموال لفك أسرى المسلمين[١] وأخذ فى الاستعداد للرد على هذا الهجوم.

فى ذلك الوقت حاولت البندقية أن تتخطى هذه الأزمة الطارئة لتأثيرها على تجارتها مع دولة المماليك فأرسل حاكمها إلى مصر يعلن أن السفن التى أغارت على الاسكندرية لا تمت بصلة إلى البندقية وأن البنادقة لم يساعدوا بطرس وطلب من سلطان مصر الأشرف شعبان العفو عن هذه الذلة[٢] مع رجاء عودة الصفاء بين البلدين كما كانت. وقد رفض سلطان مصر هذا الطلب كما رفض أى صلح مع أى دولة أوربية طالما هو فى حالة حرب مع قبرص وأصر على أن الصلح ينبغى أن يتم أولا مع ملك قبرص. فما كان من حاكم البندقية إلا أن أرسل إلى ملك قبرص بهذا الشأن وطلب منه أولاً وقف الأعمال العدوانية ضد مصر وفتح باب المفاوضات لعقد الصلح معه[٣]. وقد وافق ملك قبرص على اجراء مفاوضات الصلح بعد أن علم بالاستعدادات المصرية للثأر، وكذلك عدم استعداد الأوربيين لتقديم العون له وقد عرض على رسل البندقية استعداده لملاقاة وفد من مصر بهذا الخصوص لمناقشة شروط الصلح التى ترضى الطرفين.

توجه الوفد البندقى إلى مصر وعرض الأمر على السلطان شعبان، ففرح بذلك وأرسل سفارة مصرية مزدة بالهدايا القيمة إلى قبرص -صحبة البنادقة- وقد

---

[١] راجع: الإلماء بما جرت به الأحكام ج١ ص٤٦٢ مخطوط رقم ٤١٩٣ تاريخ.

[٢] سبق أن ذكرنا فى الهامش نقلا عن السقريزى مشاركة ٢٤ سفينة بندقية.

[٣] عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص٧١.

استقبلها بطرس بحفاوة كبيرة، وعرض شروط صلحه بضرورة عودة مملكة بيت المقدس إلى اسرة لوزجنان، وإعفاء التجار القبارصة من الضرائب الجمركية، وإطلاق سراح الأسرى النصارى بمصر، وعدم إيواء السلطان لأعداء ملك قبرص بل يجب تسليمهم[١].

وطلب الوفد المصرى عرض هذه الشروط على الأشرف شعبان، وقد كان حيث أرسل ملك قبرص وفدا مكونا من ثلاثة أفراد يحمل الهدايا الثمينة إلى سلطان مصر الذى استقبلهم بحفاوة وطلب منهم فى البداية إعادة الأسرى المسلمين وبعد المفاوضات تم الاتفاق على عقد صلح بين الطرفين فور عودة الأسرى المسلمين من جزيرة قبرص.

وبالفعل شرع ملك قبرص فى إرجاع الأسرى إلى مصر، وحقق للسلطان الأشرف شعبان شرطه ولكن سلطان مصر راوغ فى عقد الصلح بعد عودة الأسرى. وعزم على الرد بعنف على جرأة القبارصة بالهجوم على الاسكندرية، وشجعه على ذلك تخلى الدول الأوربية عن مساعدة قبرص بعد مفاوضات الصلح بينهم وبين المصريين فادعى الأشرف شعبان أن ملك قبرص لم يرسل إليه بسفير من الدرجة الأولى وفى هذا إهانة له[٢]. فما كان من الملك بطرس الأول وقد أردك الخديعة التى انطلت عليه ومساعدة البنادقة عليها، فما كان منه إلا أن أمر بالاستعداد التام السريع وأرسل إلى فاما جوستا باستعداد السفن لإستئناف الحرب.

---

[١] كان من شروط الصلح المقترحة: السماح لحجاج قبرص بزيارة بيت المقدس دون دفع الضريبة المقررة -٥ دوكات-، وتخفيض الضرائب على التجار إلى النصف وأن يتم تحصيل ضريبة واحدة من التجار وأن تكون المعاهدة دفاعية هجومية بين الطرفين حيث تشترك مصر مع قبرص ضد الوجود التركى (العثمانى) المتزايد وتمنع قبرص القراصنة من مزاولة عملهم

[٢] سامى سلطان: أسس العلاقات الاقتصادية ص ٩٦.

وسمح للقراصنة بالاعتداء على السواحل المصرية والشامية[١] كما عزم على الخروج بحملة قوية للإنتقام من سلطان مصر وإرغامه على قبول الصلح[٢].

وقد أقدم بالفعل على رأس حملة مكونة من عدد كبير من السفن للإغارة على بلاد الشام فى محرم ٧٦٨هـ. ولكن صادفته عاصفة هوجاء أرغمته على العودة إلى قبرص[٣] ما عدا أربعة عشر سفينة أو خمسة عشر وصلت طرابلس بالفعل، وظلت بها عدة أيام على أمل وصول بقية السفن ولما لم تعد رفعت الحصار عن طرابلس بعد اثنى عشر يوما وعادت إلى قبرص ثم جرت مفاوضات للصلح مرة ثانية بشروط أخف من السابقة[٤] ولكن لم يوافق عليها السلطان ويلبغا، فعادت الأمور سيرتها الأولى واستعدت قبرص للقتال من جديد وقامت بهجوم على عدة مدن شامية على رأسها طرابلس ولكن الحملة فشلت فى النهاية (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) وعادت المفاوضات بلا نتيجة حتى قتل بطرس الأول على يد بعض أمرائه سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م.

واستمر وريثه بطرس الثانى على نفس سياسة الهجوم والقرصنة ضد الشواطئ المملوكية منها فى أول سنة من حكمه حيث أغارت أربع سفن على صبرا وطرطوس واللاذقية ثم أغارت مدمرة على الاسكندرية حيث اقتحموا الميناء الشرقى وهاجموا سفينة مراكشية كبيرة فيه ثم اتجهوا نحو رشيد ثم إلى بيروت وعادوا إلى قبرص دون تحقيق أهداف مهمة.

ثم عادوا الكرة أكثر من مرة لإرغام السلطان على قبول الصلح وحدث نوع من التقارب الأوربى ضد مصر ثم جرت مفاوضات للصلح الذى تم فى ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. ولكنه كان صلحاً هشاً فلم تتوقف أعمال القراصنة من مختلف المدن

---

(١) عبد الرحمن زكى: غزوة قبرص ص ٢٤٧.

(٢) عمر تدمرى: طرابلس الشام عبر التاريخ الاسلامى ص ٧٠ دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٦م برقم ١٤٢٧.

(٣) ١٩٧ مخطوط رقم ٨٢٠٣ح خطط الشام لكردعلى ج٢ ص ١٨٦.

(٤)

والدول ضد مصر، وذلك لتشجيع بطرس الثانى الذى سمح لهم بإتخاذ موانى قبرص أوكارا لهم وقد شهد ظهور دولة المماليك الجراكسة، زيادة أعمال القرصنة التى شجعتها قبرص بل وأمدتهم بالسفن والأسلحة بل هددوا التجارة المصرية صراحة فى البحر المتوسط كما نقول النشاط التجارى إلى موانى آسيا الصغرى.

وعلى كل حال نقول بإختصار: إنه خلال بداية العصر الجركسى شهد الموقف توتراً شديداً حيث زادت هجمات القراصنة من قبرص وغيرها على الشواطئ المصرية والشامية زيادة ملحوظة وقاموا بهجمات عديدة وقطعوا الطريق على المراكب الاتية من دمياط إلى الإسكندرية وعاثوا فى البحر والبر فساداً ونذكر من هذه الأعمال ما قاموا به فى ربيع الأول سنة ٧٨٠هـ حين هاجمت عشر مراكب ميناء طرابلس، ونزلوا إلى البر حيث تصدى لهم الأمير يلبغا الناصرى نائبها وقتل الكثير منهم وفر الباقون[١].

وتكرر ذلك فى ٧٨٤هـ، ٧٨٥هـ غارات متعددة فما كان من برقوق أمام هذه العربدة إلا القيام ببعض الاجراءات الوقائية. فقد أمر بخروج الجند إلى السواحل لحفظها، وعين على دمياط الأمير اندكار. وعلى رشيد الأمير أحمد بن يلبغا، كما عزز حامية الاسكندرية كل ذلك سنة ٧٨٥هـ[٢]، كما أنه أمر بتعمير برجينفى دمياط سنة ٧٨٦هـ، وقام الأسطول المصرى بجولات فى البحر لحماية السواحل من خطر القراصنة كما تم تعزيز الاسطول فى العام التالى (٧٨٧هـ) بثمانى سفن مشحونة بالرجال والعتاد[٣] مما اضطر القراصنة للتوجه نحو السواحل الشامية للإغارة عليها خوفا من تزايد قوة الأسطول المصرى.

وقد ظل هذا الوضع حتى عهد فرج وعهد جالينوس لوزجنان (٨٠١ - ٨٢٩هـ/ ت ٨٣٥هـ) زيادة فى أعمال القرصنة وتنوعها بين سواحل مصر

---

[١] راجع أنباء الغمر ج١ ص١٧٤.

[٢] نفسه ص ٢٧٤، نزهة النفوس ج١ ص ١٥، ٧٦، ٧٨.

[٣] نفسهما: وانظر الاعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضى شهبة مجلده ج١ ض ٢٨٣ مخطوط رقم ٣٩٢ تاريخ.

والشام حتى أن قبرص اشتركت مع جنوة ورودس فى توجيه حملة قوية نحو الاسكندرية والسواحل الشامية وذلك سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م وكان يقودها الماريشال بوسيكو حاكم جنوة وقد أغارت بالفعل على الاسكندرية عشر سفن، ولكنها لم تحقق هدفها لمعرفة الناصر فرج بمسيرها قبل وصولها فاستعد للمقاومة وأرسل إلى الثغور الشمالية الأمير يلبغا الناصرى للتصدى والحماية وقد فشلن الحملة بالفعل فى الوصول إلى الاسكندرية وتوجت إلى طرابلس ثم إلى النطرون فبيروت وعاثوا فى المنطقة فسادا فتوجه إليهم شيخ المحمودى نائب دمشق فى أوائل سنة ٨٠٦هـ قاصداً طرابلس فوجدهم قد تركوها إلى بيروت فتبعهم إليها فلم يلقهم فاجه إلى صيدا بعشرة آلاف حيث ساند أهل صيدا فى رد المغيرين ونجحوا فى ذلك فعادوا بعد هزيمتهم إلى سفنهم ثم تتبعوهم إلى بيروت حتى اضطروا للعودة إلى فاماجوستا[1].

وقد ظل التوتر بين الطرفين طوال عهد فرج وفشلت بعض مساعى الصلح فلما تولى السلطنة شيخ المحمودى ورأى تلك الأعمال عقد العزم على تجهيز جملة كبيرة للهجوم على قبرص، وما أن علم جالينوس بلك حتى أسرع بعرض الصلح على السلطان المؤيد شيخ، فأجابه إليه.

وبالفعل وصل رسول قبرص إلى القاهرة لاجراءات المفاوضات التى انتهت بعقد الصلح فى ١٤ نوفمبر ١٤١٤م/ شعبان ٨١٧هـ، وأهم شروطه: التعهد بالامتناع عن إيواء القراصنة فى قبرص، وعدم السماح بأى اعمال قرصنة ضد سواحل مصر والشام والتعهد بعدم تقديم المؤن والزاد والمأوى للقراصنة إذا لجئوا إليه، ومنع راعاياه من شراء ما ينهبون من بضائع وكذلك تم الاتفاق فداء الأسرى المسلمين فى الجزيرة، وقد أرسل شيخ لهذا الخصوص الأمير امبغا النظامى الذى أرسل إلى السلطان فى محرم ٨١٨هـ رسالة بأنه وجد حوالى خمسمائة أسير وأزيد وافتداهم بثلاثة عشر ألف دينار، وأنه أوصل للفرنج المبلغ الذى كان جهزه

---

[1] راجع الأعلام ج٢ ص٢١٢، ٢٢٢، أنباء الغمر ج٢ ص٢٥٨، عقد الجمان للعينى ج٢٥ ل ١٩٦.

فيه، وهو عشرة آلاف دينار، وسمح له صاحب قبرص بالباقى[١]، وحمل منهم الى جهة مصر مائتى أسير وفرق الباقى فى جهات السواحل الشامية[٢].

وللأسف لم يحافظ القبارصة على هذا الصلح لتوهمهم ضعف سلطان دولة المماليك وأنها تحول دون تحقيق رغباتهم فى السلب والنهب والمكسب، فعادوا لأعمال القرصنة من جديد وشجعهم الكتيلان فى الهجوم على الشواطئ المصرية والشامية.

ففى ربيع الأول هجم الفرنج على نستروه -البرلس حاليا- فنهبوا وأحرقوا ثم قدموا إلى يافا فأسروا نساء وأطفالاً ثم افتكوا الأسرى بمال[٣].

وفى ربيع الآخر (٨١٩هـ) دخل ميناء الإسكندرية مركب من الفرنج ببضاعة فوقع بينهم شر نهبوا على أثره مركباً للمغاربة ثم فى جمادى الآخرة وصلت ثمانية مراكب للفرنج عاثوا فساداً فى الاسكندرية وقتلوا أكثر من عشرين رجلاً وأسروا زيادة على السبعين، وارتكبوا اعمالاً فظيعة. ولما وصل الخبر إلى السلطان أرسل جماعة من الأمراء فوصلوا بعد إقلاع الفرنج[٤].

وفى شعبان سنة ٨٢٢هـ دخل الفرنج الاسكندرية وسرقوا رأس مرقس أحد كتاب الأناجيل من مكان حصين بها، وقد استعظم النصارى اليعاقبة[٥] ذلك وعرضوا الأمر على السلطان[٦].

---

[١] يذكر المقريزى أن ملك قبرص افتك من ماله مائة وخمسة وثلاثين أسيرا بثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسة وسبعين ديناراً. السلوك ج٤ ق١ ص٣٠٠.

[٢] راجع عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢١٩- ٢٢٠ مطبعة علاء ١٩٨٥م؛ السلوك ج٤ ق١ ص٣٠٠. جعل عدد الأسرى ٥٣٥ أسيراً

[٣] عقد الجمان نفسه ص ٢٦٨.

[٤] نفسه ص ٢٦٩.

[٥] نسبة إلى يعقوب البرادعى أحد بطاركة الاسكندرية المشهورين.

[٦] عقد الجمان تحقيق المؤلف ص ٣٦٤.

ويبدو أنه لم تتخذ حيال هذه المواقف رد فعل قوى لإنشغال السلطان المؤيد شيخ بالتركمان حيث جرد إليهم أكثر من حملة، وكذلك خروج النواب عليه فى بلاد الشام.

فلما كان عهد ططر رغم قصر مدته نراه قد أصدر أمرا جدد فيه إقامة الأجانب (الأفرنج) فى سلطنته بأربعة أشهر فقط وهى المدة الكافية لأجراء الأعمال التجارية وذلك تجنبا لأخطار إقامة الفرنج فى المدن المصرية والشامية لأنهم كانوا ينقلون أخبار التحصينات والاستعدادات العسكرية إلى القراصنة وقد ظل الأمر على هذا الحال رغم ذعر الفرنج حتى تولى برسباى ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م.

ثالثاً: العلاقة بين برسباى وقبرص

استمر التوتر فى العلاقات بين مصر وقبرص قبيل سلطنة برسباى الذى وجد فى الجهاد ضدها وسيلة لتحقيق أغراضه فى صرف كبار منافسيه عن خلق المشاكل والفتن ضده وقد أراد فى بداية حكمه اتباع الوسائل السلمية لتأمين الحركة التجارية فى الموانى المصرية والشامية من ناحية، وتأمين السفن التجارية فى عرض البحر المتوسط دون تعرض القراصنة لها الذين يجدون المأوى فى جزيرة قبرص، ولذلك طلب من قناصل الكيتلان والبنادقة والجنوبين فى الاسكندرية التوجه إلى القاهرة لدراسة هذا الأمر، وبالفعل خاطبهم قائلاً: " إن ملك قبرص يقوم بحرب عدوانية ضدى بأسطوله وحتى الآن أسر ما يقرب من ألف وخمسمائة مسلم وقام آباؤهم وبقية الناس يطلبون منى التدخل لاستعادتهم وليس أمامى سوى طريقة واحدة هى أن اطلب منكم الآن التدخل فى عمل الصالح معه، وأننى سوف أقوم بكل ما يطلبه".

وقد أجاب هؤلاء بعد تمكنهم من منع أعمال ملك قبرص فعرض عليهم السلطان إختيار واحد منهم يذهب كوسيط فى هذا الأمر فقام أحد الفرنج الكيتلان وعرض ذهابه صحبة أحد المماليك إلى ملك قبرص، وبالفعل جهز السلطان هدية فخمة لجالينوس الذى قبل الهدية واعتذر عن فك قيود الأسرى لاستخدامهم

فى زراعة أرض قبرص بقصب السكر[١]. وقد غضب برسباى من ذلك بعد علمه من أحد السرى العائدين ان القبارصة يشترون الغنائم (الأسلاب) من القراصنة، ويتسترون عليهم، وقد أرسل برسباى إلى جالينوس ينهاه عن ذلك ولكنه لم ينته واستمر فى إيواء القراصنة الذين لم ينقطع عبثهم بالسواحل المصرية ولم تجد كذلك محاولات الصلح أو حتى معاهدة لمنع التعدى، وتصور جالينوس أن ذلك مرده إلى ضعف المماليكو عدم قدرتهم على التصدى لهم، وعز عليهم أن يتركوا بابا من أبواب الثراء ولو كانت غير مشروعة.

ولذلك نجد فى شعبان سنة ٨٢٥هـ كما يقول المقريزى: "كثر عبث الفرنج بالسواحل، وهجم فى الليل غرابان فيهما طائفة من الفرنج على ميناء الاسكندرية فوجدوا فيها مركبا للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار، فاقتتلوا معهم عامة الليل فخرج الناس من المدينة فلم يقدروا على الوصول إليهم، لعدم المراكب الحربية عندهم، ولا وصلت سهامهم إلى الفرنج، فقد كانت تسقط فى البحر فلما طال الحرب بين الفرنج والتجار المسلمين واحترقت مركب التجار بكل ما فيها ثم توجهوا نحو سواحل برقة واستولوا على البضائع والأموال منها ثم عادوا إلى الاسكندرية ومضوا نحو الشام[٢] حيث أغاروا على بيروت وقد أصابوا من ذلك كثيرا من بضائع المسلمين وأسرهم وأموالهم.

لذلك لم يرتح برسباى لهذا الموقف واحتج على نقض الهدنة وهدد باتخاذ سياسة عنيفة ضد الرعايا القبارصة فأمر بالقبض عليهم ضمن الفرنج وصادر أموالهم. كما قبض على جماعة من الفرنج الكيتلان الذين توجهوا لزيارة القدس خفية فسجنوا[٣] كما قبض على رهبان دير صهيون وأمر بإغلاق كنيسة القيامة ولم يقبل شفاعة فلورنسا فى إطلاق سراح الحجاج والرهبان، وكلنه قبل وساطة البندقية

---

[١] محمد امين صالح: التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عهد المماليك الجراكسة، ص ٢٦. دكتوراه بجامعة عين شمس ١٩٦٩م رقم ٦٣٤.

[٢] السلوك ج٤ ق٢ ص٦١٧، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٥٠.

[٣] السلوك ج٤ ص ٦٣٧.

فأفرج عنهم وفتح الكنيسة ولم تستطع البندقية تحقيق الشق الثانى من الاتفاق وهو إقناع القبارصة والاسبتارية بإعادة الأسرى والأموال المنهوبة كما أن الغارات لم تنقطع عن السواحل[١].

ففى ٨٢٦هـ وردت الأخبار إلى مصر بقرب حركة الفرنج على بلاد المسلمين فاتخذ السلطان الاحتياطات اللازمة وأرسل عدة من الأمراء إلى الاسكندرية ودمياط ورشيد فى رمضان وبكامل خروجهم فى الثامن والعشرين منه وكان الذى توجه إلى ثغر الاسكندرية الأمير التمرازى أمير مجلسى[٢].

وفى سنة ٨٢٧هـ (فى رجب) قدم الخبر على السلطان بأخذ الفرنج مركبين من مراكب المسلمين قريباً من ثغر دمياط فيها بضائع كثيرة وعدة أناس يزيدون على مائة رجل فكتب السلطان بإيقاع الحوطة على أموال تجار الفرنج التى ببلاد الشام والاسكندرية ودمياط والتحفظ عليها، وتعويضهم عن السفر إلى بلادهم حتى ترد الفرنج ما اخذوه من المسلمين وتشفع كبار أمراء الدولة فى إطلاق سراحهم ولكنه لم يقبل[٣].

كما استولوا على سفينة مصرية كانت تحمل هدايا من السلطان إلى مراد العثمانى حيث لم تكن العلاقة قد ساءت بين الدولتين حتى ذلك الوقت، هذا بجانب الإشاعات المتكررة عن هجوم الفرنجة على السواحل المصرية والشامية مما يستدعى إرسال نجدات إلى الموانى كما سبق وأن أشرت وإن كان غالب هذه الإشاعات كاذبة ولكنها بلا شك كانت تترك أثرها على السلطان وعلى سياسة الدولة، كما كانت بصدد قلق وإزعاج للمصريين الذين يميلون إلى السلام، ولا يريدون الدخول فى حروب الا إذا استكرهوا عليها.

---

(١) أحمد دراج: المماليك والفرنجة ص ٣٢ – ٣٣.

(٢) السلوك ج٤ ق٢ ص٦٤١، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص٢٥٥.

(٣) راجع السلوك ج٤ ق٢ ص٦٦٥، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٦٦، زبدة كشف الممالك ١٣٨، قابل: تاريخ الخلافة العباسية بمصر ج٢ ص١٧٠.

ولذلك لم يكن هناك مفر من قيام حرب علنية بين مصر وقبرص، فقد تكاملت أسبابها. فمن باعتداءات متكرر غير مراعية المصالح المدنية والتجارية أو العرف الدولي. كما أن برسباى والوضع هذا يريد أن يتقرب من الشعب الذى طالبه مرارا بفك الأسرى المسلمين الذين أشرت إليهم فى بداية حكمه، والذين ازداد عددهم بعد الهجمات المتكررة، لذلك وجد أن الواجب يحتم عليه القيام بعمل جهادى لتقوية مركزه من ناحية، ويحول أفكار كبار الأمراء عن التمرد ضده من ناحية ويوجه جهودهم وشجاعتهم نحو قبرص لإشباع رغبتهم وإظهار بطولتهم فى ميدان يعود نفعه على البلاد والعباد، كما شجعه بعض الأمراء من عمال مدينة نابلس وأقنعه بما اقترفه القبرصيون وأغراه بأسلاب عظيمة ومغانم وفيرة وهون عليه شأن قبرص، ولذلك أراد إختبار الأمر والاستعداد له وبخاصة وقد استنجد به بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى لحمايتهم من عدوان قبرص ومنوكيا. كما شجعه أمير جنوه الذى لم يكن على علاقة وفاق مع ملك قبرص، فاختمرت الفكرة للتنفيذ.

وقد أعد برسباى ثلاث حملات لفتح قبرص كانت الحملة الأولى سنة ٨٢٧هـ/ ١٣٢٤م كجملة استطلاعية يختبر بها قوة الجزيرة واستحكاماتها ومدى مقاومتها، ومن سيقف بجانبها حتى يتخذ للأمر عدته. وسوف نفصل الأمر حول هذه الحملات الثلاث.

لم تكن قبرص فى تلك الفترة خالصة لأسرة لوزجنان، فكان الجنوية يحتلون فاماجوستا منذ سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م وكان البنادقة يسيطرون على بيسكوى أو لاسكينة ويتخذونها مرفأ لسعتهم التى تجوب البحر المتوسط لنقل المتاجر بين الشرق والغرب.

كما كان الموقف الداخلى فى الجزيرة يسوده الإضطراب بالإضافة إلى أن إيراد الجزيرة لا يسمح بأى حال بإعداد جيش يقاوم جيش المماليك وإن كانت قبرص تمتاز بأسطولها القوى الذى يمكن أن يحول أو يصعب من فتح الجزيرة ولكن محاولات الفتح فى سنوات متتالية أجهزت على هذه القوة كما سنرى.

رابعا : الحملة الاستكشافية ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م :

وكان الهدف منها استطلاع قوة قبرص، والوقوف على أمر الفرنج الذين كانوا يمارسون القرصنة فى البحر المتوسط وتبيان مدى مساعدة قبرص لهؤلاء القراصنة ولهذا لم تكن حملة كبيرة سفناً ورجالاً فقد كان عدد السفن خمسا منهما سفينتان تحملان ثمانين مملوكاً[١]. وقد صنعتا فى مصر وغادرت بولاق فى التاسع من شهر رمضان ٨٢٧هـ (٧ أغسطس ١٤٢٤م) وسارتا حتى وصلت إلى دمياط حيث انضمت اليها سفينة أخرى فيها متطوعون. وانضم إليهم فى بيروت وصيدا سفينتان وقد بلغ عدد المتطوعين ستمائة مقاتل وصحبتهم ثلاثمائة فرس يقودهم يشبك الحرون وإياس الطويل[٢]. وبعد ذلك توجهت السفن نحو قبرص فقد كان الأمر الصادر إليهم "عسى أن يجدوا من يتجرم فى البحر من الفرنج"[٣] ولذلك قصدوا قبرص، فوصلوا إلى فاماجو ستا حيث قابلهم حاكمها الجنوى مقابلة ودية واكرم وفادتهم ثم توجهوا إلى ميناء ليماسول فى مكان يسمى رأس اليأك (اليأك) جنوب ليماسول فوجدوا سفينة تجارية مشحونة بالبضائع قد فر عنها أهلها حين شاهدوا سفن المسلمين الذين استولوا على ما فيها وأشعلوا فيها النيران[٤]. ثم أكملوا سيرهم إلى ليماسول للإنتقام من أعمال الشغب التى شنها القبرصيون وأعوانهم. وذلك أن جالينوس لما علم بخبر هذه الحملة عن طريق الفرنج فى الاسكندرية الذين كانوا يتجسسون لحسابه على الدولة فاستعد علاقاتها بعد أن شيد وسائل الدفاع عنها براً وبحراً، ولذلك عندما وصلت السفن الإسلامية وجدت قوة قبرصية مكونة من ثلاث سفن مسلحة تسليحاً قوياً فى انتظارهم، وجردوها من معداتها الحربية

---

(١) السلوك ج٤ ق٢ ص٦٦٨، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٦٨. وفى عقد الجمان ص ٢٦٣- ط الزهراء – نزهة النفوس ج٣ ص٧٧ " سبعون مملوكاً".

(٢) إنباء الغمر ج٣ ص٣٣٠، تاريخ السلطان قايتباى للسيوطى ص ٣٧أ مخطوط رقم ٦١ تاريخ عقد الجمان ص٢٦٣ ط الزهراء.

(٣) السلوك ج٤ ق٢ ص٦٦٨.

(٤) زبدة كشف الممالك ص ١٣٨.

وأحرقوها بعد أن استولوا على أسلحة القتال ولكن سرعان ما ظهرت قوات بريـة قبرصية قوامها سبعون فارسا وثلاثمائة راجل يقودهم فيليب بروفستو وفيليـب دى بيكويني عمدة ليماسول. وكان استعدادهم للقتال كبيرا حيث اخرجوا المـدنيين مـن أهالى ليماسول إلى الجبل، وقد اصطدم المسلمون بتلك القوة حيث قتلوا قائدها فيليب بروفستو وفر عمدة ليماسول، وتشتت شمل القوة القبرصية تاركة وراءهـا بعـض القتلى والأسرى ثم دخلوا البلاد المجاورة يجمعون ما تصل إليه أيديهم من الغنـائم ثم اتجهوا نحو قلعة ليماسول للاستيلاء عليها، ولكنهم وجدوا الأمر بحاجة إلى قـوة ووقت[١] لمناعتها وحصانتها، فقرروا العودة إلى مصر. وبالفعل أبحروا من كوكليا بعد تخريبها، وصادفهم فى العودة سفينتان قبرصيتان أخـذت إحـداهما وأحرقـت الأخرى[٢].

وقد وصلت السفن الإسلامية إلى بولاق فى العشرين من ذى القعدة محملـة بالسمن والعسل والجوخ والأقمشة القطنية والأثـاث والمصـنوعات. وعـدد مـن الأسرى حدد بعض المؤرخين بثلاثة وعشرين رجلا[٣] وذكر العينى أنهـم مقـدار إثنى عشر وثلاثة عشر أسارى[٤]. وحددهم ابن حجر ألف وستمائة. وقد فرح الناس بعودهم وسلامتهم وتشوق كل أحد للجهاد. وقد وزعت المغانم حسب الشرع علـى حد قول العينى وابن الصيرفى، وإن ألمح المقريزى بقوله " رفـع للسـلطان منـه (الجوخ) مائة وثلاث قطع، طرحت على التجار ولم يعط المجاهدون منهـا شـيئا" يعرض بالسلطان لأنه كان مبعداً عن الوظائف الدارة، وهذا كثيرا ما جعله يتحامـل على السلاطين. كما أن العينى كان أقرب المؤرخين من برسباى ويلازمـه كثيـرا فهو أدرى بما حدث فى القصر السلطانى. وعلى كل حـال كانـت هـذه الحملـة الاستطلاعية على حد قول العينى سبباً للغزوتين اللتين حصلت بعدها". وذلك لأنهـا

---

(١) انظر: زبدة كشف الممالك ص ١٣٨.

(٢) المصريون فى قبرص ص٦ (محمد مصطفى زيادة).

(٣) السلوك ج٤ ق٢ ص ٦٧٢، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٧٠.

(٤) عقد الجمان ص ٢٦٢ ط الزهراء.

أكدت للسلطان برسباى مسئولية قبرص وملكها جالينوس عن أعمال القرصنة حيث أخبره رجال الحملة أنهم شهدوا سفن القرصان بجزيرة قبرص، ومعدة للإغارة على شواطئ المسلمين، كما رأوا بموانى قبرص كثيرا من البضائع الإسلامية المنهوبة وكذلك أوقفت هذه الحملة السلطان على ضعف جزيرة قبرص وإنحلال أمورها وعجزها عن مقاومة المسلمين مما شجع برسباى على الاستعداد لفتح الجزيرة.

خامساً: الحملة الثانية سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م

لقد كان النجاح الذى حققته الحملة الاستكشافية دافعا لبرسباى فى الاستمرار لفتح الجزيرة لاسيما وقد تأكد له نوايا ملك قبرص العدائية ضده ودولته لذلك صمم على إرسال حملة اكبر لتكون نتائجها أفضل، وشجعه على ذلك الروح الجهادية الوثابة التى ظهرت لدى المصريين. والتى جعلتهم متلهفين على بذل الأنفس والأموال فى الجهاد لما سمعوا عن أحوال الجزيرة التى طالما أخافتهم، وهددت تجارتهم لكل هذا أسرع برسباى بإصدار أوامره فى محرم سنة ٨٢٨هـ/ نوفمبر ١٤٢٤م ببناء سفن جديدة فى ساحل بولاق -حيث دار الصناعة- بل كان ينزل بنفسه للإشراف على الصناعة وتشجيع العمال على إنجاز العمل بأسرع ما يمكن[١]. ولذلك تم خلال ربيع الأول إستكمال إحدى السفن ونزلت البحر استعدادا للإبحار، وقابل الناس هذا العمل بسرور بالغ[٢].

ولما تم استكمال عمل السفن (الأغربة) كان لابد من تحديد المجاهدين الذين سيقومون بهذه المهمة وبدأ ذلك فى جمادى الآخرة حيث عين السلطان جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء وألزم كل أمير أيضا أن يجهز عشرة مماليك من مماليكه حيث تم إنجازعمل الطرائد والأغربة[٣]. وفى رجب أنفق فى ستمائة رجل من الغزاة مبلغ عشرين ديناراً لكل واحد منهم، وجهز الأمراء ثلاثمائة رجل ثم نودى من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النفقة، وذلك لإعداد نفسه للتوجه والمشاركة

---

(١) راجع عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٥٤ ط الزهراء، السلوك ج٤ ص٦٧٩.

(٢) راجع أنباء الغمر ج٣ ص ٣٤٢، السلوك ج٤ ق٢ ص ٦٧٩.

(٣) النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٥.

فى الفتح، وأمر كل أمير أن يحضر اثنين من مماليكه وحدد لأمير مائة مقدم ألف – كما سبق – عشرة مماليك. وقد علق ابن تغرى بردى على نشاط السلطان وعمله الدءوب للإعداد لهذه الحملة بقوله: " وقام السلطان فى الجهاد أتم قيام وقد شرح الله صدره له"[١]. وقد بلغ عدد الجيش ما يقرب من ألف ما بين مماليك سلطانية ومماليك أمراء وأمراء بطالين – منقطعين عن العمل – وعامة وأشرك معهم كثيرا من النفاطين والزراقين والمثاقفين (الرماة) ونحوهم[٢].

وقد حدد القيادة العليا للأمير جرباش الكريمى ويعرف كذلك شرماس قاشوق حاجب الحجاب بالديار المصرية ويعاونه الأمير قرا مراد خجا مقدم ألف. ومعه من الطبلخانات المير يشبك شاد الشرابخاناة الشريفة والأمير قنصوه. ومن أمراء العشرينات ولعشرات الأمير شيخ الحسنى رأس نوبة، والأمير قبغا الناصرى. والأمير كتبغا الأحمدى[٣].

وهذا يدل على الاستعداد الكبير والعمل بحماس ونشاط فنجاز هذه المهمة على خير وجه حتى أنه عندما احتاج للأخشاب لإستكمال عمل السفن أمر بإحضارها من قصور سرياقوس التى كان ينزل بها السلاطين للفسحة والتنزه[٤]. وهذا دليل على أن شاغل السلطان الأول هو إنجاز الحملة بسفنها دون النظر إلى أمور أخرى. ولو كان تراثا، ولو كان مكانا خاصا للسلاطين فروح الجهاد فوق أى مصلحة والثأر من العدو يحتاج إلى حسن الإعداد، فكرامة الوطن فوق الجميع وأغلى من كل شئ. ولم يغب عن بال السلطان أنه من المحتمل مهاجمة ملك قبرص للشواطئ المصرية الشامية أثناء إنشغال المصريين بحملتهم، فشيد برجاً

---

[١] نفسه ص ٢٧٦.

[٢] عقد الجمان ص ٢٦٤ ط الزهراء.

[٣] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٦٤ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص٧٧-٧٨. وفيها ان عدد المماليك السلطانية أربعمائة مملوك، وقد سبق أن ذكرنا أنه أنفق فى ستمائة رجل وهناك ثلاثمائة من مماليك الأمراء.

[٤] السلوك ج٤ ق٢ ص ٦٨٢.

عظيما فى مدينة الطينة[١] بالقرب من دمياط ليراقب سفن الأعداء إذا أقبلت وكان مرابع الشكل (٣٠ ذراعا فى مثلها) وشحن بالأسلحة وأقيم فيه خمسة وعشرون مقاتلا فبهم عشرة فرسان وأنزل حوله جماعة من عرب الطينة فانتفع به المسلمون غاية النفع، وذلك أن الفرنج كانت تقبل فى مراكبها نهاراً إلى بر الطينة وتخطف الناس من غير ممانع لخلو هذا المكان من الناس ولذلك كان بناؤه مفيدا وهذا التصرف مفيد فى الحماية والعمليات الحربية المقبلة.

ورغم إقدام السلطان على هذا العمل الاحترازى للحماية فقد راجت الإشاعات عن هجوم منتظر من جانب الأعداء، يفاجئون به الشواطئ المصرية فأرسل السلطان برسباى المماليك والأمراء لحراسة الثغور، كما أرسل إلى طرابلس وبيروت والإسكندرية ودمياط يأمر بتركيز الجند على السواحل حفظاً لها من الفرنج. ولم تكن هذه الإشاعة كاذبة بل كان لها أساس من الحقيقة ذلك أن الملك جالينوس لما علم بما حل بسفنه وقواته عند ليماسول قام بإعداد أربع سفن لينتقم من المصريين، وكلف اثنتين من هذه السفن بالتوجه إلى سوريا والأخيرتين إلى مصر وكانت السفينتان المتوجهتان إلى سوريا تحت قيادة توماس بروفستو ففاجأتا مدينة صور حيث وقعت معركة قصيرة تكبدت فيها حامية المدينة خمسين من رجالها[٢]. ثم أخذتا فى التنقل من مدينةإلى أخرى دون تحقيق أى مكسب يذكر لوجود الحراسة فى كل الجهات.

ولما نفذ ما بالسفينتين من الماء العذب قصدتا نهر كلب الذى ينبع من جبال لبنان للحصول منه على الماء، وقد أطلقوا مدفعا قبل نزولهم إلى البر حتى يتأكدوا من خلو المكان من المدافعين[٣]، ولكن الحامية المصرية كمنت لهم وكبدتهم خسائر فادحة ففروا إلى سفنهم متوجهين إلى قبرص وقد صادفتهم فى عودتهم سفينة للمسلمين من سفن النقل كانت عائدة من اللاذقية قاصدة مصر فاستولوا عليها وقتلوا

---

[١] الطينة بلدة قديمة قرب مكان بورسعيد الحالية، وكانت تعرف بأواريس كذلك.

[٢] محمد مصطفى زيادة: المصريون فى قبرص ص٨.

[٣] زبدة كشف الممالك ص ١٣٩.

بحارتها وكانت تحمل شحنة كبيرة من المجاديف وكان على قيادتها الريس فاضل الذي نجا وحده[١]، أما السفينتان المتوجهتان إلى مصر بقيادة دون بالول (بالبه). وكانت مهمتهما قطع الطريق على الأسطول المصري في المواني المصرية، ومنعه من الخروج إلى البحر. وقد أخذ بالول مكانه أمام دمياط بالفعل ولكنه عندما شاهد الأسطول المصري انسحب إلى بلاده[٢]. وهكذا كان الجوينذر بلقاء حربي، استعد له الطرفان على أمل تحقيق نصر يصنع حداً لهذه التطورات.

وعلى كل حال في رجب ٨٢٨هـ أرسلت خيول الصلة إلى طرابلس وكان عددها ثلاثمائة وأخذت السفن تنزل إلى الماء وتشحن بالمقاتلة أو السلطان يستعرضها في بولاق. والناس يتفرجون مسرورين والجند والسلاح يشحن استعداد للتحرك نحو الغزو في سبيل الله. وفي اليوم التالي نزل المقام الناصري محمد ولد برسباي لتفقد الاستعداد والشحن وكان بصحبته جانبك الأشرفي وشاهدا مع الجموع تحرك طلائع الأسطول.

تحرك الأسطول رويدا من بولاق قاصداً دمياط وكان آخر المسافرين من بولاق في ٢٢ من رجب، وقد وصلوا إلى دمياط ومكثوا بها فترة ثم تحركوا منها في العشرين من شعبان (٢٧ يوليو ١٤٢٥م) فوصلوا إلى بيروت يوم ٢٣ شعبان وسافروا منها يوم السبت الخامس من رمضان، ثم وصلوا إلى طرابلس وأقاموا بها أياماً للاستراحة وتجديد التجهيز، وخدمهم النائب خسرو[٣] خدمة هائلة ثم سافروا من طرابلس في الرابع عشر من رمضان وكان قد وصل عدد قطع الأسطول أكثر من أربعين قطعة من أصناف مختلفة[٤].

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٦٨٩.

[٢] السيوطي تاريخ الملك الأشرف قايتباي ص ٣٨ مخطوط رقم ٦١ تاريخ، أنباء الغمر ج٣ ص ٣٤٦.

[٣] هو قصروه بن تمراز.

[٤] منها خمسة لنقل الجنود، ١٩ قطعة حربية، ست سفن لنقل الخيول، ١٢ سفينة من سفن الشحن. زبدة كشف الممالك ص ١٤٠، وانظر النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧.

رسول سلام إلى قبرص:

قبل أن يصدر الأمر بالتحرك من طرابلس رأى الأمير جرباش قائد الحملة إرسال رسول إلى جالينوس ملك قبرص يعرض عليه السلام، والدخول فى طاعة السلطان دون قيد أو شرط وأن يدفع الجزية. وكان رد جالينوس مخيباً للآمال فقد رفض العرض واعلن الاستعداد للحرب. فما كان من جرباش إلا إعلان التحرك اليه فى ١٤ رمضان ٨٢٨هـ (٣٠ يوليو ١٤٢٥م) ووصلت بعد أربعة أيام إلى ميناء قريص على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة قبرص[١]. وكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رمضان ومضت فى طريقها حتى وصلت بالقرب من الماغوصة أو المراعش التى تعرف الآن بفاماجوستا يوم الأحد العشرين من رمضان[٢].

نشاط حربى:

وهناك نزل المشاة وأكثر الفرسان إلى البر، ونصبوا خيامهم فسلمت لهم المدينة دون حرب، وذلك أن حاكمها الجنوى لما علم بوصول المسلمين أسرع بإرسال رسول من قبله يطلب منهم الأمان ويخبرهم بدخوله فى طاعتهم ويقول: إنه مملوك السلطان، وأن المدينة مدينته، فاعطاه المسلمون أماناً بعد أن رفع راية السلطان على قلعة المدينة[٣]. كما أرشد المصريين إلى استعدادات ملك قبرص ودلهم على عوراتها ونواحى الضعف فيها وخلال الأيام الثلاثة التى قضاها المسلمون فى منطقة الماغوصة شنوا الغارات على القرى والبلاد الواقعة غربها وأسروا وقتلوا وأحرقوا وعادوا بغنائم كثيرة[٤]. وكان يراقبهم فى هذه الأثناء جيش قبرص صغير يقوده هنرى اللوزينيانى (اللوزجناتى) أخو الملك جالينوس، وأمير جاليلى. وقد

---

[١] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٦٦ ط الزهراء، قبرس والحرب الصليبية ص ٩٥.

[٢] عقد الجمان نفس الصفحة.

[٣] النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٨، زبدة كشف الممالك ص ١٤٠.

[٤] النجوم الزاهرة نفس الصفحة.

اختلفت المصادر فى عدده فهو ثلاثمائة فارس على حد قول العينى وألف فارس وثلاثة آلاف راجل فى رأى غيره.

هاجم المصريون هذا الجيش وقتلوا منه خمسة عشر فارسا وجرحوا أكثر من خمسين على حين لم يستشهد من المسلمين سوى اثنين[١].

ثم أقلعت السفن المصرية إلى الملاحة (أو أحواض الملح) بعد أن ترك أربعمائة جندى مشاة يسيرون فى البر بحذائها لمراقبة العدو، وقد استطاعت أسر فصيلة من الجيش القبرصى بقوادها، وكان قوامها ثلاثين جنديا ثم انضم جنود البر إلى الاسطول بالقرب من رأس العجوز ومعهم الأسرى.

لم تكن السفن المصرية تمر أمام بايلا وتتراءى لها لارنكا Larnaka حتى ظهر أسطول قبرصى مكون من إحدى عشر قطعة حربية[٢].

وقد تظاهر الأسطول بالهرب قبل الاصطدام بالأسطول المصرى وكانت هذه خدعة لاستدراج المصريين إلى عرض البحر حتى يسهل القضاء عليهم ولكن هذه الخطة باءت بالفشل تنطل على المصريين. لذلك قرر قائده الاصطدام المباشر بالسفن المصرية حيث وقعت معركة حامية يقول العينى: " فلما رآهم المسلمون كبروا وهللوا، وصلوا على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وكان لهم ضجيج وابتهال إلى الله تعالى حتي جاوبهم البر والبحر، ثم حملوا على الكفار بهمة عالية وقلوب صافية، وألسن ذاكرة فلطف الله بهم حتى هزموا القرقورة والسلورتين، ووقفت الشوانى مجتهدين للقتال. وقابلهم المسلمون بالمدافع والمكاحل". فى الوقت الذى أطلقت فيه هذه الشوانى النار الإغريقية بغزارة على السفن المصرية فجرحت البعض، فما كان من المسلمين إلا التقدم نحو هذه السفن والسيطرة على نيرانها " فتقدم المسلمون وقربوا منهم وهم يكبرون ويهللون ..... فحين قربوا منهم انهزموا".

---

(١) عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٦٦، ط الزهراء. نزهة النفوس ج٣ ص٧٩

(٢) المصدران السابقان، تسعة اغربة وقرقورة فى أنباء الغمر ج٣ ص٣٤٧، عشرة أغربة وقرقورة كبيرة فى النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٩. وفى عقد الجمان ثمانى شوانى وقوقورة وسلورتين ص ٢٦٧.

لأنهم وجدوا الجرأة والإقدام والبسالة والشجاعة التي لم يصمدوا لها فلاذوا بالفرار، وهنوا الأسطول المصري اللحاق بهم لكنهم أمعنوا في الهروب. وكان النصر حليف المسلمين[١]. وتحطمت آمال شقيق الملك، الذي اتخذ من أراد يرو مقراً لقيادته ليراقب المعركة عن كثب.

اتجه المسلمون بعد ذلك إلى ميناء الملاحة يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فوجدوا في انتظارهم جيشاً كبيراً مكوناً من ثلاثمائة فارس أرسلهم أمير جالبان شقيق الملك وذلك للحيلولة دون نزول المسلمين إلى البر ومهاجمتهم أثناء نزولهم، كما وجدوا السفن الثمانية التي هزمت أمامهم وهي ترابط بالميناء وقد نزل من مماليك السلطان حوالي ثلاثين مملوكاً مشاة فلما رآهم هؤلاء الفرسان الفارسة طمعوا فيهم لقلتهم. وركبوا عليهم (هجموا) فلما رأى هؤلاء المماليك ذلك كروا وطلوا وتناولوا معهم ودخلوا في وسطهم واستطاعوا قتل خمسة عشر فارساً وجرحوا نحو ستين آخرين، فعند ذلك انكسر الفارسة وانهزموا وانهزمت شواتيهم وانطردت.[٢]

وقد انتهز المسلمون خلو الميناء من السفن وأخذوا ما فيه، وشنوا الغارات على القرى المجاورة والضياع، وقد حصلوا الكثير من الأسرى والمغانم، حتى لقد ضاقت بهم سفنهم[٣].

واستطاع المسلمون القبض على أمير الملاحة واسمه عين الغزال وقتلوه انتقاماً مما أنزله بالكثير من أسرى المسلمين من التعذيب[٤].

وفي تلك الأثناء المسلمون منشغلون بتخريب دور الكفر، وتحصيل الكفرة إذا بشخص قد حضر وصحبته ثلاث عجلات -عربات- عليها زرد خانة -سلاح-

---

[١] راجع عقد الجمان ص ٢٦٧ ط الزهراء، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٩.

[٢] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٦٨ ط الزهراء.

[٣] قيل أن عدد الأسرى ٤٠٠ في عقد الجمان ص ٢٦٨، ٤٩٢، ٤٩٢ في نزهة النفوس ج٣ ص١١.

[٤] زبدة كشف الممالك ص ١٤١، أنباء الغمر ج٣ ص ٣٤٧.

قد أرسلها جالينوس صاحب قبرص تقوية لأهل الملاحة ومساعدة لهم على قتال المسلمين. فأخذها المسلمون ووجدوا الشخص القادم بها هو المملوك يشباك الجركسى الذى أسره الفرنج[١]. قبل ذلك- واستغلوا خبرته العسكرية فى صنع الأسلحة والذخيرة- من ذلك قرر شقيق الملك عدم الدخول فى معارك ضد المماليك للهزائم المتتالية وحتى لا يفت ذلك فى عضد جنوده، وخضوعاً لرأى الناصحين والمشيرين الذين أرسلهم إليه الملك من حكماء الجزيرة.

واصل المسلمون سيرهم إلى اللمسون (ليماسول) فوصلوها فى آخر رمضان سنة٨٢٨هـ (١٥ أغسطس ١٤٢٥م) وكان هدفهم حصن المدينة لذلك أنزلوا إلى البر مائة وخمسين جندياً ومعهم بعض مماليك السلطان للاستيلاء عليه[٢].

ويبدو أنهم وجدوا مقاومة حيث تعرض بعض المسلمين لجروح. يقول العينى: " ودخلوا برجاً هناك فيه نصارى فرموا على المسلمين فجرحوا منهم بعضهم وكانوا بغير لبوس"[٣]. وقد باتوا ليلة العيد دون التمكن من البرج فلما وصلوا الصبح والعيد استعدوا لاقتحام البرج وأحاطوا به وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا بفضل الله آخذه قبل الظهر، وسط التكبير والتهليل ورفعوا السنجق السلطانى عليه، وقد أسفر القتال عن ستين قتيلاً من فرسان النصارى، ومائتى أسيراً أو أقل أو أكثر، وأحرقوا البرج وهدموه، وسط جو من الفرح والسرور الذى لا يوصف. حيث التقى عيدان عيد الفطر مع النصر، وذلك أن هذا البرج على حد قول العينى: لم يكن له مثيل فى الجزيرة من حيث الحصانة وشدة العمارة. ولهذا تضاعف فرحهم بالاستيلاء عليه وتدبيره[٤].

---

[١] عقد الجمان ص ٢٦٨ ط الزهراء.

[٢] نفسه ص ٢٦٩.

[٣] عقد الجمان ص ٢٦٩ ط الزهراء ويقصد باللبوس ملابس الوقاية من الدروع والخوذ وغيرها.

[٤] نفسه، والسنجق هو الراية أو العلم أو اللواء.

مساعدة ومشاورة:

وفى الوقت الذى تعامل فيه المسلمون مع الحصن، وفرحهم بإنجاز المهمة قدم إليهم خمسة من أسرى المسلمين من اسكبته وكان عدد الأسرى اثنى عشر مسلما تمكنوا من الهروب فسار وراءهم القبارصة لاستعادتهم وتمكنوا من سبعة منهم قيدوهم وأعادوهم إلى الحبس وسلم الخمسة الذين وصلوا إلى المسلمين وأبلغوهم بأن اسكبته خاضعة للبنادقة. وعندهم أسرى مسلمين كثيرين، وأنهم كذلك يستعدون لتقديم المساعدات للقبارصة. وان تجار السكر البنادقة قد جهزوا بالفعل زردخانة (ذخيرة) رسلها صاحب البنادقة إلى صاحب قبرص خدمة له وإعانةعلى المسلمين وتتكون من خمسة وعشرين صندوقا فيها قرقلات وخمسة عشر صندوقا فيها خوذ، وثلاثة صناديق فيها سيوف وسبعمائة رمح، وأربعة رؤوس خيل سود، وستة سروج، ومائة وخمسون حبلاً وأربعة قلوع، واثنا عشر سرياقات قنب لأجل شوانى أعداء الله[1]

أدرك المسلمون تطور الموقف وخطورته وبخاصة أنهم علموا كذلك عزم ملك قبرص على إرسال حملةكبيرة بقيادة جديدة للتصدى لهم، فما كان من القائد جرياش إلا الدعوة لعقد مشورة حول التطورات الجديدة، وبخاصة وأن الخوف يتسرب الى النفوس لهذه الأخبار والتطورات. وقد سأموا الحرب وتشوقوا للعودة إلى بلادهم لذلك كان الأنسب اتخاذ قرار جرئ فى هذا الوقت قبل أن تفضى الأمور إلى مالا يحمد عقباه. ولذلك لما اجتمع القادة وأهل الرأى معه تشاور فى الموقف الجديد، وعرض عليهم سرعة العودة حتى لا ينتشر السأم بين الجنود الذين ملوا من تعدد المعارك وعنف القتال، وكذلك حرصا على الغنائم الكثيرة التى حصلوها، وتطور الموقف العام وقد وافق الكل المشورة على العودة التى شجعهم عليها كذلك وصول جيش قبرصى بقيادة حاكم نيقوسيا فتعامل معه المسلمون حتى هزموه بعد

---

[1] نفسه. والقرقلات أدوات لنسفن، والسرياقة الحبل الغليظ.

عدة معارك، فاضطر للتقهقر وأصدر القائد أمره بالإقلاع نحو مصر فأبحروا من ليماسول ليلة الثلاثاء السادس من شوال سنة ٨٢٨هـ[١].

سادسا: المصريون ينتظرون ويترقبون:

في الوقت الذى كانت فيه تجرى أحداث قبرص، كان السلطان يترقب الأخبار، ويتلهف عليها ليطمئن على أبنائه وقد وصلته بالفعل رسالة من نائب طرابلس الأمير قصروه من تمراز تحمل الأخبار السارة، وقد وصلته أخبار الحملة من رسالة أرسلها القائد جرياش إليه فيها أخبار ما حدث بقبرص ففرح لها السلطان برسباى لدرجة كبيرة حتى أنه أمر كاتب السران أن ينزل إلى المدرسة الأشرفية ويقرأ كتاب القائد جرياش على الناس من فوق منبرها. فامتثل كاتب السر للأمر وأعطى الرسالة للقاضى ناصر الدين الفاقوسى نقرأه على الجموع الغفيرة التى ضجت بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير وكانت لهم ضجة عظيمة من الفرح والسرور[٢].

كما أمر السلطان كذلك بقراءة أنباء النصر على منبر جامع عمرو بن العاص ليسمعه أكبر عدد ممكن من سكان القاهرة[٣].

لقد بدأت مظاهر الفرح تعم الجميع لهذه الأخبار السارة فدقت البشائر بالقلعة، وعزفت الموسيقى وزينت القاهرة ومصر بيوتا وأسواقاً أرسلت الأخبار السارة إلى الاسكندري وغيرها من مدن الوجه البحرى والقبلى[٤]، فالفرحة عامة لهذا النصر الكبير الذى حققه جنود مصر، وبخاصة بعد سنوات عجفاء عز عليهم فيها مثله.

---

[١] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٧١ – ط الزهراء.

[٢] نفسه.

[٣] النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٨. ويذكر أن ذلك كان فى اليوم التالى لقراءته بالأشرفية.

[٤] السلوك ج٤ ص ٦٩٤.

لقاء المنتصرين:

فى الوقت الذى عم فيه السرور الأرجاء، انتشرت شائعة عن وصول القوات المصرية إلى الطينة قرب دمياط فعكرت صفو الأفراح والسرور، فقد دهش الجميع لهذا التطور وظنوا أن الحملة قد فشلت وكثر الأخذ والرد فى هذا الموضوع، حتى أن السلطان قلق أشد القلق. وأعلن الاستعداد لإرسال حملة كبير إلى قبرص "فنادى فى الناس من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النفقة، فكثر قلق الناس لذلك وظنوا كل ظن"[١].

ولكن سرعان ما وضحت الحقيقة وعلم الجميع أن عودة الفاتحين كانت بعد النصر والظفرة فعاد سرور الناس إلى ما كان عليه. وذلك أن متولى قطيا (قاطية) أرسل رسالة إلى السلطان يخبره بوصول المسلمين يوم السبت عاشر شوال، وأن الأمير جانباك الناصرى رأس نوبة صحبته الأسرى[٢].

وفى اليوم الخامس والعشرين من شوال ٨٢٨هـ/٩سبتمبر١٤٢٥م، وصل الأسطول المصرى الظافر إلى القاهرة، وبات الجنود المنتصرون ليلتهم فى ساحل بولاق، وفى صباح اليوم التالى ساء موكب النصر إلى القلعة وفى صحبته ما يقرب من الف أسير وقتيل ١٦٠٠[٣]. وقد حملت الغنائم على مائة وسبعين حمالا وأربعين بغلا، وعشرة جمال وهى ما بين خرج وصناديق وحديد وآلات حربية وأوانى ومنسوجات وعرض الجميع على السلطان وكان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله فى الدولة التركية والجركسية[٤] يكفى أنه شق القاهرة بين صفوف متراصة من الناس الذين اكتظت بهم الشوارع والطرق والمحلات وحتى أسطح المنازل والحوانيت،

---

(١) النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٧٨، ٢٨٠.

(٢) عقد الجمان ص ٢٧١ ط الزهراء. وقد أمر السلطان جماعة من الأوشاقية والتجانة لملاقاتهم حتفالا بهم.

(٣) عقد الجمان ص ٢٧٢، السلوك ٤ ق٢ ص ٦٩٦؛ النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٨١.

(٤) السلوك ج٤ ق٢ ص٦٩٦ نزهة النفوس ج٣ ص ٨٤؛ النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٨١.

ولا يستطيع أحد المرور بينها إلا بصعوبة ومشقة بالغة وربما لا يستطيع السير ويرجع إلى حيث أتى على حد قول ابن تغرى بردى.

وقد عهد السلطان إلى الأمير انيال الششمانى أحد الأمراء العشرات ورأس نوبة ثانى بالبيع تحت إشراف الأمير جقمق العلائى أمير أخور كبير، والذى أصبح سلطانا سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م). وأن يكون بيع الأسرى علنا فى سوق الرقيق أو فى الحراقة عند باب السلسلة على حد قول المؤرخين لمعاصرين،ولكنه أوصى ألا يفرق فى بيع الاسرى بين الآباء والأبناء ولا بين الأقارب وبعضهم. وهذا الموقف يدل على أخلاقيات الإسلام كما يدل على عطف السلطان وشفقته، وقد أقبل الناس على اختلاف طوائفهم من أمير وجندى وقاض، وفقيه وتاجر وعامى على الشراء وقد استمر البيع لعدة أيام[١] كما قومت الأشياء الأخرى كذلك بأمر السلطان . يقول العينى: " وأخبرنى إينال المذكور ان الأسرى أبيعت (بيعت) بنحو مبلغ ثمانية عشر ألف دينار وثمانمائة دينار وكان فى جملة الغنائم التى غنمها الغزاة فضة وزن ألف درهم، فباعوها بمقدار ألف دينار، وكان فيها أنواع الحديد فباعوها بمبلغ خمسمائة دينار وباعوا بقية الغنائم من الجوخ والصوف وأنواع القماش بمقدار ألفى دينار[٢]. وقد أنفق السلطان على المجاهدين من الأموال التى تجمعت فأعطى لطائفة سبعة دنانير ونصف، ولطائفة ثلاثة دنانير ونصف[٣].

ونسير فى ختام الحديث عن هذه الحملة المظفرة أن المسلمين فقدوا ثلاثة عشر شهيداً على أرض قبرص بينما سقط من الفرنج القبارصة خمسة آلاف قتيل[٤]. وما النصر إلا من عند الله بعد الاستعداد الجاد وبذل الجهد المطلوب وعدم التهاون او التخاذل.

---

[١] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٨١.

[٢] عقد الجمان(تحقيق المؤلف) ص ٢٧٢- ٢٧٣ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص ٨٤.

[٣] النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٨١. وانظر السلوك ج٤ ق٢ ص٦٩٦ وجعلها سبعة فقط دون النصف.

[٤] انباء الغمر ج٣ ص ٣٤٨، تاريخ قايتباى (للسيوطى) ص ٣٨ ب.

بين حملة النصر وحملة الفتح:

لما انتشرت الشائعات بفشل الحمله دعا برسباى إلى الاستعداد لحملة جديدة فلما تأكدت أخبار النصر وشاهد المصريون الغنائم الكثيرة والأسرى دفعه ذلك للتفكير فى الجزيرة بصورة أوضح لإخضاعها لحكمه. ولكننا قبل أن نتحدث عن ذلك يلزمنا توضيح الموقف العام بعد عودة الحملة المصرية الثانية.

فأثناء إحتفال المسلمين بالنصر وصلت إلى دمشق بعثة قبرصية تهدف إلى تقرير السلام، أوجس نبض المسلمين نحو هذا الطريق. وكانت البعثة تتألف من الدوق توماس بروفستو، والدوق جان بودوشانارو، وتهدف للتقرب من السلطان بواسطة الشيخ محمد بن قديدار الصوفى المشهور فى سوريا، وقد اتصلت هذه البعثة به ليكون واسطة بينها وبين السلطان وشاع فى القاهرة أن ملك قبرص جالينوس (جانوس) كتب لملك دمشق يطلب الصلح من السلطان. ولذلك أراد الشيخ محمد أن يتأكد من صدقنوايا ملك قبرص قبل أن يكلم السلطان فى هذا الشأن. فأرسل ابنه إلى قبرص يطلب منه ضرورة تهدئة السلطان برسباى حتى يكون مستعداً لذلك، ولكن لم يستطع الابن اقناع المستشارين للملك بذلك، واعتقدوا أن فى إرسال الابن حيلة يبرها هذا الشيخ وانتهت المحاولة بالفشل.

كما أن جالينوس من ناحية ثانية لم ينسى ما حل ببلاده وصمم على مواصلة الحرب مع المماليك وأرسل إلى ملوك أوربا يطلب مساعدته ولكنهم انشغلوا عنه. فقد طلب من البندقية قروضاً مالية بضمانات، كما طلب قوات عسكرية وقد رفضت مطالبه بالكلية ومنعت مواطنيها من التطوع فى صفوف القبرصيين بصفتهم الشخصية. وبذلك قطعت البندقية آمال قبرص فى المساعدة كتلك التى قدمها من قبل تجار السكر البندقيين والذى دفع البندقية لهذا الموقف المتشدد رغبتها فى عدم تعرض تجارتها للحظر، ولذلك أرسلت إلى قنصلها فى القاهرة يبلغ سلطان مصر وقوفها على الحياد فى الصراع الناشب بينهم وبين قبرص[1].

---

[1] راجع المصريون فى قبرص (لزيادة) ص١٣، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك (لمحمد أمين ص ٣٠).

أما الدولة البيزنطية فلم يكن فى مقدورها إمداد يد العون للقبارصة، وقد اكتفى الإمبراطور بعرض التوسط للصلح بينالطرفين، وبالفعل أرسل إلى القاهرة رسولاً بهذا الخصوص ويحمل هدية ثمينة وذلك فى جمادى الأولى ٨٢٩هـ/ أبريل ١٤٢٦م. وقد قبل السلطان برسباى الهدية ورفض التوسط فى الصلح، وشفاعة الإمبراطور فى أهل قبرص[١].

أما جزيرة رودس التى كان يهمها صمود قبرص لتكون خط الدفاع الأول لهم ضد المسلمين فقد كان الإسبتارية منشغلين بحربهم مع الأتراك العثمانيين. وحاولت رودس التوسط فى الصلح، فلما فشلت فى تحقيقه أرسلت مساعدة من السفن والرجال والذخيرة إلى قبرص.

وإذا كانت أوربا لم تقف وقفه حاسمة مع قبرص لظروفها، فإن العجب أن يقف ناصر الدين محمد ين على باك بن قزمان سليل السلاجقة وصاحب بلاد قزمان من أرض الروم. موقفا مؤيد القبرص، ناسيا اليد الحانية من ظطر حيث أطلق سراحه من سجن القلعة حيث سجنه المؤيد شيخ وقد أنعم عليه[٢] ولم يحفظ للأسف هذه اليد لظطر. ووقف موقفا مؤيداً لجالينوس وسمح له باستئجار جنود من بلاد قرمان المسلمين للقتال معه ضد المسلمين للأسف.

هذا فى الوقت الذى كان فيه برسباى مصمما على فتح قبرص والاستقرار فيها بخلاف ما سبق فى الحملتين الشابقتين المشجعتين على الاستمرار للاستعداد والفتح، وقد شجع على ذلك ما وقف عليه من قيادة الحملة والتى أظهرت عدم مهارة القبارصة فى القتال على عكس الشائع من اعمال القراصنة كما أن تقارير حكومة جنوة التى أرسلها الجنوية المقيمين بالإسكندرية إلى السلطان تظهر أن قوة القبارصة قد تبددت وأضحت غير قادرة على لقاء القوات المصرية القوية، وكان غرض الجنوية من ذلك خلق مصاعب لجالينوس تصرفه عن التفكير فى إرسال حملة لاستعادة فيماجوستا من أيديهم.

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧١٨، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٨٧.

[٢] راجع عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ١٣٠ ط الزهراء.

كما كانت رغبة أمير العلايا[١] التى كانت مهددة دائما من قبل حكم لوزجنان وقرمان، فقد كانت مع الحرب ضد قبرص لذلك شجعت برسباى على الاستمرار فى الاستعداد لتحقيق الحلم الذى تهفو إليه النفوس العامة.

سابعا: الحملة المصرية الثالثة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م

لقد كانت الظروف التى أشرت إليها حافزة لبرسباى كى يستكمل مشروعه لفتح قبرص وبخاصة وقد علم باستعداد ملكها، ومراسلته للأوربيين بما يعنى عدم ركونه للسلام وفكر فعلاً فى إرسال أسطول نحو الأسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس[٢] فخشى أن تحدث ما أحدثته حملة بطرس السابقة. لذلك زاد إهتمامه بهذه الحملة الثالثة واعتنى بها عناية كبيرة وقد ظهر ذلك فى عدة نواحى:-

الأولى: كثرة عدد السفن المشتركة فيها والتى بلغ عددها ما بين المائة والمائتين أو أكثر من مائة وقيل ١٦٠ أو ١٨٠[٣].

الثانية: تقسيم الحملة إلى قيادتين قيادة القوات البرية للأمير تغرى بردى المحمودى الناصرى، رأس نوبة النوب، ومعه تغرى برمش (حسين بن أحمد) نائب القلعة وقيادة بحرية يتولاها الأمير إينال الجكمى، أمير مجلس، ومعه قرا مراد خجا الشعبانى أمير جاندار. وهؤلاء أربعة من مقدمى الألوف، وهناك أمراء طبلخانات وأمراء العشرات وأعيان الخاصكية، وجماعة من أعيان أمراء دمشق وغيرها على رأسهم طوغان السيفى تغرى بردى أحد مقدمى ألوف دمشق[٤].

---

[١] بانشاطى انجتوبى لآسيا الصغرى وكان أميرها مستقلا.

[٢] زبدة كشف الممالك ص ١٤٢.

[٣] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٣٠١، عقد الجمان ص ٢٧٦ ط الزهراء، أنباء الغمر ج٣ ص ٣٦٦

[٤] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٨٨.

الثالثة: الإنفاق بلا حدود من السلطان على هذه الحملة من السلطان برسباى فقد أنفق عليها مالاً كثيراص حتى كان يوم الإنفاق من أجل الأيام وأحسنها لما وقع فيه من بذل السلطان الأموال على من تعين للجهاد[١].

الرابعة: عدم التفاف المجاهدين لأخذ المال بل كان الدافع الدينى والرغبة فى الجهاد هى الأساس فقد جلس السلطان بالحوش فى القلعة لعرض المجاهدين، ولم يلتفت المجاهدون لأخذ المال، بل كان الشخص الشخص إذا وقف فى مجلس السلطان، ينظر رءوس النواب تتهارب من المماليك السلطانية الذين يريدون أخذ الدستور من السلطان للتوجه إلى الجهاد والسلطان يأمرهم بعدم السفر ويعتذر أنه لم تبق مراكب تحملهم، وهم يتسارعون فى ذلك مرة بعد أخرى، إلى خمس مرات وعظم إزدحام الناس على كتاب المماليك لكتابتهم فى المجاهدين، حتى أن بعض أعيان الفقهاء سافر بدون تصريح رسمى، بل كان وجه من يسافر للجهاد يشع بالفرح والسرور والبشر عكس من لم يعين للجهاد. ولم يحدث ذلك فى غزوة من الغزوات قبلها ولا بعدها[٢].

الخامس: النجاح الكبير الذى حققته هذه الحملة من كثرة الغنائم والأسرى. وكذلك اخضاع قبرص لحكم مصر.

ولنبدأ مع هذه الحملة واستعدادها من البداية حيث كانت روح الجهاد سارية فى الجميع. فقد أمر السلطان بعمارة الأغربة والحمالات وبذل فى ذلك الكثير من المال والجهد كما وصل إلى القاهرة (فى ١٣ جمادى الآخرة) مجاهدون من دمشق وصفد وغزة وطرابلس للمشاركة مع المصريين وكان دخولهم يوما مشهوداً واصطفوا بأسلحتهم وآلاتهم فى الطرقات بين التكبير والتهليل ومظاهر الفرحة وأضفوا على روح الجهاد لوناً جديداً ثم من الميدان الكبير إلى بولاق حيث تجمع القوات للتحرك[٣].

---

[١] نفسه ص ٢٨٧.

[٢] نفسه ص ٢٨٧ – ٢٨٨.

[٣] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٧٤ ط الزهراء.

خروج المجاهدين إلى الموانى الشمالية :

بعد إكمال الاستعدادات بدأ خروج المجاهدين بسفنهم وكان ذلك يوم الجمعة الثانى من رجب حيث خرجوا ارسالا متتابعة قاصدة الاسكندرية ودمياط للتوجه إلى قبرص. وكان لخروجهم فرح وسرور، فقد تجمع الناس من الأقطار والبلاد والنواحى للفرجه وتوديع المجاهدين والابتهال إلى الله تعالى بنصر المسلمين، وعودهم بالسلامة والغنيمة حتى لقد صار ساحل بولاق مزدحماً جداً حتى لا يستطيع الرجل المرور إلا بعد تعب ومشقة كبيرة، ولما ضاق عليهم البر الشرقى للنيل، عبروا إلى البر الغربى فى إمبابة وبولاق التكرور، ونصبوا الخيام والأخلاص بل وانتشرت مراكب النزهة فى الساحل والزينة التامة فى الشوارع والبيوت وقد ظلت مظاهر الاحتفال عدة أيام[١] وكان آخرهم سفراً فى يوم السبت حادى عشر رجب[٢]، وقصدوا دمياط والإسكندرية للإنطلاق منها نحو هدفهم. يقول العينى: " وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب، اجتمعت العساكر الغزاة كلهم وأوسقوا مراكبهم بالعدد والمياه الحلوة والزوادات من كل شئ، ولم يبق إلا الإقلاع والسير، وكانوا كلهم نحو من خمسة آلاف نفس، منهم من الترك أكثر من السفن ومماليك السلطان نحو ألف نفس ومماليك الأمراء المصرية والذين جاءوا من الشام نحو ألف، وستمائة من العشران -بدو الشام والدروز- بجانب المتطوعين من مصر والشام[٣].

وبدا التحرك يوم السبت ٢٤ رجب من الاسكندرية قاصدين رشيد لتنضم إليهم السفن الخمسة الرأسية هناك، ولكن قبل أن تصل هذه السفن هبت على الأبطول ريح عاصفة أظلمت على أثرها الدنيا، فاصطدمت المراكب بعضها ببعض وغرقت أربعة مراكب بما فيها من القماش والزوادات والخيل غير بنى آدم فانهم نحوا أحدها مركب الأمير تغرى بردى رأس نوبة، والآخر مركب الأمير قرا مراد

---

(١) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٨٩.

(٢) السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٠.

(٣) عقد الجمان ص ٢٧٦ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص ٨٥-٨٦.

خجا، والثالث مركب الأمير يشباك شاد الشرا بخاناه، والرابع مركب عسكر طرابلس، فجرى فى ذلك اليوم من الأمور المزعجة ما لم ير مثلها ولكن الله عزوجل لطف بالناس فسلموا وأخرجوا إلى البر بالزوارق[١]. وذلك لأنهم لم يستمعوا لرؤساء المراكب الذين طلبوا التأجيل، إندفاعاً وتحمساً للجهاد.

وصلت هذه الأخبار إلى السلطان فانزعج إنزعاجاً شديداً حتى كاد أن يهلك وبكى بكاء شديداً وصار فى قلق عظيم وعزم على رد الغزاة لولا أن هدأ العينى من روعه وبين له نماذج عديدة صعبت فى أولها، وسهلت فى آخرها، لذلك إختار جماعة من الفقهاء لقراءة سورة الأنعام عدة مرات وقصد الأولياء والصالحين وأرسل إليهم الأمير جرباش قاشوق لكشف الخبر وبلغ من حرص السلطان ان جعل لأصحاب السفن الأربعة الخيار فى السفر أو العودة وعوضهم ما تلف وأرسل إليهم معونة خمسمائة قنطار بقسماط وثلاثين ألف سهم من النشاب وأشياء أخرى وقد أصلح جرباش العطب وفق رغبة السلطان وأن الجميع ركبوا السفن قاصدين الفتح[٢].

كما وصلت إلى السلطان فى الخامس من شعبان أن الحملة قد هاجمتها خارج الاسكندرية أربع قطع حربية كان ملك قبرص قد ارسلها لتقطع الطريق على المسلمين وإن استطاعت أن تهاجم الاسكندرية فعلت، فكتب المسلمون لمن فى رشيد من بقية سفن الأسطول بالتوجه للحاق بهم ولم يهملوا شأن هذه السفن، بل ترامسوا معهم يومهم كله بالنشاب إلى الليل وباتوا يتحارسون حتى الصباح، ثم نشب القتال ثانية، وبينما هم فيه وصلت السفن القادمة من رشيد فلما رآهم الفرنج ولوا الأدبار،

---

[١] عقد الجمان ص ٢٧٦ ط الزهراء. ويذكر ابن حجر موت تسعة أنفس ومائة فرس. إنباء الغمر ج٣ ص٣٦٦، وجعلهم المقريزى وابن تغرى بردى عشرة. السلوك ٤ ق٢ ص ٧٢٠، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٨٩.

[٢] راجع عقد الجمان ص ٢٧٧ وما بعدها ط الزهراء، أنباء الغمر ج٣ ص ٣٦٧، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٩٠، نزهة النفوس ج٣ ص ٨٧، المنهل الصافى ج٣ ص ٢٦٤.

وقد خسر المسلمون عشرة فى هذا اللقاء[١]. وقد محى هذا النصر الأثر السيئ الذى أحدثه غرق بعض السفن فى نفس السلطان. وسارت سفن المسلمين القادمة من رشيد مع الاسكندرية مع الأصلية وسافر الجميع معا قاصدين قبرص وذلك يوم الأربعاء العشرين من شعبان حتى أرسوا فى ليفاديا على ساحل اكديمونى فى الرابع والعشرين منه (أول يوليو ١٤٢٦م).

فى قبرص:

وصل الأسطول المصرى إلى مقربة من ليماسول وألقى مراسيه فى ليفاديا حيث نزلت القوات البرية إلى الشاطئ لتخيم به وظلت القوات البحرية فى السفن مستعدة لمواجهة أى هجوم بحرى[٢]. ثم توجهت جماعة من فرسان المسلمين إلى حصن ليماسول الذى كان المسلمون قد دمروها فى حملة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م. وقد أخذتهم الدهشة من تجديد عمارة المدينة بعامة على أحسن ما كان، وجعلوا لها خندقاً عظيما. وقد حاولوا مهاجمتها فاستعصت عليهم، ولم يثنهم ذلك عن هدفهم، بل زادهم إصرارا وحماسا فأحاطوا بالحصن من كل جانب، واحتالوا على حصانته بالسلالم التى نصبوها عليه. وصعد يشبك قرقش[٣]. وهو من الفرسان المعدودين ولكنه لم يصل إلى رأس السور لقصر السلالم عنه بمقدار ذراع أو أكثر فتعلق بالسور وهو عريان من السلاح فحماه الله تعالى ببركة دين النبى صلى الله عليه وسلم. وكان هناك ستون مقاتلاً بعدد وأسلحة فخذلهم الله عن هذا الفارس وتمكن من الاستواء على السور ثم تبعه آخرون[٤] فعند ذلك هرب الفرنج الذين كانوا آنذاك منشغلين بإيقاد تدور الزفت لإلقائها مغلية على من يصعد إليهم من المسلمين ولكن الله هزمهم، وملك المسلمون البرج. او الحصن أو القلعة، ورفعوا عليها السنجق

---

[١] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٠، السلوك ج٤ ق٢ ص٧٢٠، أنباء الغمر ج٣ ص٣٦٧.

[٢] عقد الجمان (تحقيقالمؤلف) ص ٢٧٨ ط الزهراء، قبرس والحروب الصليبية ص ١٠٩.

[٣] تولى هذا الأمير ركب بالحج الأول سنة ٨٤٤هـ. أنباء الغمر ج٣ ص٣٦٧ ولم يذكر فى حوادثها ج٤ ص١٥٢-١٦٣ وكان أمير الركب الأول فى هذا العام فى عقد الجمان ص .

[٤] عقد الجمان ص ٢٧٨.

السلطانى (اللواء أو العلم). وأعلنوا التكبير والتهليل وقد قتلوا الذين تصدوا لهم[١] وكان أخذها يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان ثم هدموه عن آخره حتى لا يستغل ضد المسلمين ثانية[٢]. وقد قضوا بها ستة أيام استعدوا خلالها لما يستجد من أعمال ومعارك.

فى هذا الوقت الذى انشغلت فيه القوات البرية بالحصن ظهر للقوات البحرية غراب قبرصى مشحون بالرجال المقاتلين ومعهم العدد والآلات، فوجه إليه على الفور الأمير تغرى بردى غراباً قاده بنفسه ثم تبعه غراب آخر فانزعج الفرنج من المفاجأة والسرعة وهربوا[٣]. وكان هذا هو اللقاء الثانى بين المسلمين والقبارصة.

ثم توجه بعض المسلمين إلى الإسكنية وهى قرية من قبرص خارجة عن حكم جانوس (جالينوس) نظيرا لما غوصة وهى مع البنادقة. فطلبوا من المسلمين الأمان، فامنوهم فحملوا إليهم الهدايا والضيافات وسألوهم عن جانوس فأجابوهم بالوضع الحقيقى لجانوس.

رسول قبل الهجوم:

لقد أخبر أهل الإسكنية المسلمين بأن جانوس استعد للمسلمين بخمسة آلاف فارس، وسبعة آلاف راجل، فرأى المسلمون مراسلته ودعوته للتسليم والدخول فى طاعة السلطان، والتخلى عن اعمال القرصنة. يقول ابن حجر: " فراسلوه بأن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلا مشوا إليه وخربوا قصره وأسروه وقتلوه"[٤]. ولم تكن إجابة الملك طيبة فقد أخذته حمية الجاهلية ورفض مقابلة الرسول وأمر بتعذيبه حتى مات تحت العذاب، ثم قام أخو الملك جالينوس بإشعال

---

[١] نفسه. وانظر انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٧.

[٢] عقد الجمان ص ٢٧٨، السلوك ج٤ ق٢ ص٧٢٢، وجعلها ابن تغرى بردى يوم الأربعاء السادس والعشرين. النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٢.

[٣] عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٧٩ ط الزهراء.

[٤] انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٧.

النار فى جثة هذا الرسول. ولما بلغ المسلمون ذلك لم يكن أمامهم سوى التقدم نحوه والتأهب للمعركة الفاصلة المنتظرة[١]. وتلقين الملك وأعوانه درساً فى الأخلاق التى تجرأ عليها.

وفى تلك الأثناء سارت جماعة من الفرسان على رأسهم اركماس العلائى وإياس الطويل بالساحل، فشاهدوا الغراب الذى هرب من أمام سفن المسلمين راسياً وقد طلع منه جماعة إلى البر بأسلحتهم. فأسرع إليهم الفرسان وقاتلوهم حتى انهزموا وقتلوا منهم خمسة أشخاص، قطعوا رءوسهم وعلقوها على جدار قلعة اللمسون[٢].

وقد تدارسوا تحركهم للقاء الملك. فرأى البعض تحرك القوات البرية، وانتظار البحرية عند اللمسون ولم يوافق الأمير تغرى بردى المحمودى على الفصل بين القوات البرية والبحرية لأن بقاء القوات البحرية قد يعرضها لهجوم الأسطول القبرصى ى غيبة الجيش، وإذا انكسرت السفن يصبح الجيش الاسلامى محصوراً فى قبرص يحارب حسب الظروف. ولذلك تم الاتفاق على سير القوات براً وبحراً على أن تلتقى عند الملاحة. وقد كان[٣].

الطريق إلى خيروكيتا:

سارت القوات البحرية بقيادة الأمير إينال الجكمى وكذلك القوات البرية بقيادة الأمير تغرى بردى على أن يتم اللقاء عند الملاحة. ولما كان الوقت صيفاً والحرارة شديدة والمسلمون صائمو رمضان فقد عانوا كثيراً من المشقة والتعب ولذلك ساروا من غير تعبئة أو استعداد، وبعضهم بغير سلاح لاعتقادهم ان جالينوس لا يقاتلهم إلا عند نيقوسيا، وقد ظل أهل البر سائرين حتى وصلوا موضع الكنيسة فوجدوها خرباً والبئر الذى بها قد هدم، فحفروا حوله فظهر الماء فشرب المفطرون ثم ساروا فى جبال وتلال -وغالبهم صوام والحر شديد- فنزلوا للقائلة

---

[١] نفسه.

[٢] عقد الجمان ص ٢٨٠ ط الزهراء.

[٣] عقد الجمان(تحقيق القرموط) ص٢٨٠ط الزهراء، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٩٢

في ظلال الشجر وإذا بصارخ يصرخ "جاءكم العدو"[١]. وكان ذلك في طلائع الجيش القبرصي وكانوا نحو ثلاثمائة فارس وجمع كبير من المشاة فاستعد المسلمون للقائهم وأرسلوا إليهم ثلاثين فارسا من الشجعان ومعهم بعض المشاة فحملوا عليهم حملة واحدة بتوكل على الله، وإظهار التكبير والتهليل، فولى الكفار الأدبار مخذولين منهزمين[٢]. وقد قتل منهم عدد ولما التقوا بجالينوس ذكروا له ما عليه المسلمون من قوة وشجاعة وأنهم قادمون ومصرون على التقدم.

ولما انهزمت طليعة جالينوس، لم يلبث المسلمون إلا ساعة لطيفة حتى أقبل صاحب قبرص ومعه جيشه والطلائع المنهزمة ومعهم خلق من الأفرنج من البلاد، ومن الكيتلان والأروديسية وغيرهم. وقد قسمهم إلى فصائل يتراوح عدد الفصيلة بين الخمسين والمائة رجل، وأصدر الملك تعليماته إلى الجند والمشاة التقدم على شكل مروحة أو على شكل الساحفاة[٣] وإنحاز إلى بساتين هناك وجعل بينه وبين المسلمين نهرا وتقدم نحو خمسمائة من قواته، فالتقت بها طليعة قوات المسلمين البرية ويذكر ابن تغرى بردى أن هذه الطليعة كانت من الخيالة في غالبها ومن أعيان المماليك السلطانية فعندما وقع العين على العين لم يتمالك المسلمون أن يصبروا حتى يصل إخوانهم فيكونوا وحدة واحدة، ولكنهم انتهزوا الفرصة ورغبوا في الشهادة وتحمسوا وتحاضوا وقالوا: هذه الغنية وقصدوا القوم بقلب صادق وحملوا على الفرنج حملة صادقة عظيمة وهم يرددون الله أكبر، وقاتلوا أشد القتال، ثم وفد إليهم جماعة من إخوانهم وحمى الوطيس واشتد القتال، وتكامل الجمع من الطرفين والقتال مستمر ومتزايد والمسلمون يتنادون: يا وجوه العرب ويا ال جركس عن أبواب الجنان فتحت امامكم وإن متم كنتم شهداء وإن عشتم عشتم سعداء، بيضوا وجوهكم وأخلصوا لله العمل[٤].

---

(١) انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٧.

(٢) عقد الجمان ص ٢٨١ ط الزهراء.

(٣) زيادة: المصريون في قبرص ١٣.

(٤) السيوطي: غزوات قبرص ورودس ص ٨ ط واين ١٨٨٤م، انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٨.

ويروى أن قطلو بغا قاتل يومئذ قتالاً شديداً حتى عثر به جواده، فقام عنه وقاتل راجلاً إلى أن قتل[١] شهيداً، مكما استشهد السيفى تغرى بردى المؤيدى الخازندار، وكان من محاسن الدنيا "لم تر عينى أكمل منه فى أبناء جنسه". والسيفى اينال طاز البهلوان، والسيفى نانق التشبكى. وهم من الأعيان والأبطال المعدودين. عوض الله شبابهم الجنة. ثم قتل من المسلمين جماعة أخرى[٢].

ومع ذلك صمد المسلمون وحملوا على القبارصة حملة صادقة فولوا الأدبار منهزمين فاستعمل المسلمون فى رقابهم السيف حتى قتلوا الكثير منهم " جماعة لا يحصون وجرحت آخرون، ولم ينج منهم إلا من تأخر أجله فى علم الله تعالى"[٣]. وجعلهم ابن حجر ستة آلاف قتيل فى يوم واحد[٤]. كما أن الكثير منهم ألقى سلاحه ولاذ بالفرار لعدم الخبرة بالقتال وللأسف كان من هذه الجنود أعداد كبيرة قد استأجرها من علباك بن قرمان، ولكنه قتل منهم الكثير، ولم تغن جالينوس العشرة آلاف التى اعدها لقتال المسلمين ولا الأسلحة التى جمعها، فقد أنزل الله نصره على المؤمنين ومن عليهم بالظفر والفتح، رغم قلة الذين اشتركوا فى القتال من المسلمين حتى ان الذى قد حضر أوائل الوقعة أقل من سبعين نفساً قبل أن يصلهم الأمير اينال العلائى الناصرى- الأشرف اينال السلطان فيما بعد- والأمير تغرى برقش ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة بعد أن انكسر الفرنج وأسر ملك قبرص وقتل من قتل[٥].

---

[١] انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٨، وكان رأسا فى الصراع، شجاعاً فارساً. النجوم الزاهرة ١٤ ص ٢٩٣.

[٢] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٣.

[٣] عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٨١ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص٩٠.

[٤] انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٨، نزهة النفوس ج٣ ص٩٠، غزوات قبرص ورودس ص٩.

[٥] عقد الجمان ص ٢٨١، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٣- ٢٩٤.

الملك أسيرا:

لقد جرح الملك ثلاث جراحات أثناء القتال فارتبك وسقط عن جواده، فأركبه أصحابه فوقع ثانية فأركبوه، ثم ثالثة فكبا به الفرس من هول ما رأى من عنف المعركة. وفرار جنده، لذلك دهشوا وذهلوا من الموقف فولوا الأدبار كذلك وقد أبصر بعض الجنود المسلمين بالملك وأراد قتله فصالح بالعربية "أنا الملك" فأسره المسلمون ووضعوه فى حراسة الأمير تغرى بردى المحمودى[١]. كما وقع فى قبضة المسلمين كبير طائفة الكتيلان وهو موزن سورى وقتل أخو صاحب قبرص فى المعركة[٢] لذلك وقد استمر القتال حول خيروكيتا عدة أيام بالضياع والأماكن وبطريق قبرص (الأنقسية) لذلك يذكر ابن تغرى بردى أن عدد القتلى لا حد له ولا حساب[٣].

ثم تفرق الجيش المملوكى صباح اليوم التالى لمعركة خيروكيتا فى المناطق المجاورة عدة أيام يأسرون ويقتلون ويخربون ويجمعون، كما صعد بعضهم على جبل الصليب حيث الصليب الأعظم الذى كانوا يعبدونه ويقصدونه من البلاد البعيدة على حد قول العينى واحرقوا وهدموا العديد من الكنائس[٤].

إلى الأقسية (نيقوسيا):

بعد هذه الانتصارات والنشاط الكبير للجيش المصرى واصل سيره إلى ميناء الملاحة حسب الاتفاق السابق، وقد وصلت بالفعل القوات البرية والبحرية فى يوم الأربعاء الرابع من رمضان (١٠ يوليو) وقد استقبل الأمير اينال الجكمى -قائد القوات البحرية- الملك جالينوس الأسير على ظهر سفينته.

---

(١) السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٢. انباء الغمر ج٣ ص٣٦٩، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٣.

(٢) عقد الجمان ص ٢٨١ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص ٩٠، انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٨. وكان قتل أخو الملك انتقاما منه لإحراق جثة الرسول المسلم.

(٣) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٤.

(٤) عقد الجمان ص ٢٨٢.

ولما التقت القوات المصرية، وصلت أخبار متتابعة بأن لصاحب قبرص أخاً آخر –هو أسقف نيقوسيا- وأنه قد حصن الأفقسية والتى هى كرسى قبرص، وأنه تأهب للقتال مع بقية عساكرهم لذلك رأى المسلمون التعامل معه قبل استفحال خطره، وقد ركب الأمير تغرى بردى بطائفة من العسكر وتوجه نحو الأفقسية مع بقاء الأمير اينال الجكمى بأسطوله فى البحر لحماية السواحل ضد أى طارئ[١]. وقد تطور الأمر بصورة غير متوقعة وانشغل المسلمون بالقتال فى البر والبحر ذلك أن الأمير اينال الجكمى لم يمر وقت طويل حتى شاهد سفناً للأسطول القبرصى تقترب منه عند ساحل لارناكا على مقربة من الملاحة ويذكر العينى أن عددها سبعة قراقير وثمانية اغربة فيها القرقورة الكبرى التى كانت قد وصلت إلى ثغر الاسكندرية فى أبهة عظيمة[٢]. فلما تراءى الأسطولان وقع القتال وكان البادى به الأمير اينال الجكمى الذى أرسل يعلم القائد البرى الأمير تغرى بردى بذلك فعاد غالب الجيش إلى الميدان وعلى رأسهم تغرى برقش ويشباك المشد واينال الأجرود، وبقى الأمير تغرى بردى فى نحو ستين فارساً[٣]. ولقد استمر القتال طوال اليوم عنيفاً واجتهد الأمير اينال الجكمى فى القتال اجتهاداً كبيراً، وبذل المسلمون جهداً كبيراً حتى أن بعضهم كان يلقى بنفسه على مراكب الأعداء رغم كثرة المدافع والسهام ولكنه حب الشهادة وروح الجهاد التى لا تبالى بالمخاطر ولا يمكننا أن نطلق عليه انتحار كالشائع الموجه فى عصرنا.

وعلى كل حال تمكن المسلمون من أخذ قرقورة وقتل من فيها فانهزمت بقية سفن الأسطول وولت الأدبار فى البحر تاركين أكثر من مائة وواحد وسبعين قتيلاً[٤].

---

(١) عقد الجمان ص ٢٨٢.

(٢) عقد الجمان (تحقيق المؤلف) ص ٢٨٢. وهى فى السلوك (٢١٤ ص ٧٢٣)، النجوم الزاهرة (١٤ ص ٢٩٤)، المنهل الصافى ج٣ ص ٢٦٤، سبعة أغربة وسبعة مربعة القلاع، وفى نزهة النفوس كما فى عقد الجمان ج٣ ص ٩١.

(٣) عقد الجمان ص ٢٨٣ ط الزهراء.

(٤) عقد الجمان ص ٢٨٣. وعدد القتلى فى السلوك ج٤ ص ٧٢٢ " ألف وخمسمائة. ويفهم من كلام ابن تغرى بردى أنه يقرب من ألفين ج ١٤ ص ٢٩٤، ٢٩٥. وقد خالف اجتماع=

وهكذا من الله على المسلمين بالنصر فى هذه الموقعة البحرية الشرسة الذى أظهر فيها المسلمون حماساً وإصراراً وشجاعة منقطعة النظير وهذا حالهم فأين نحن الآن؟

هذا فى الوقت الذى استمر فيه الأمير تغرى بردى متقدماً نحو الأفقسية بمن معه حتى وصلها يوم الخميس الخامس من رمضان (١١ يوليو) فقوبل مقابلة ودية من مسئوليها وحملوا المشاعل كإعلان لفرحهم بمقدم المسلمين ربما لأن أخا الملك تركهم بمفردهم وأخذ أسرة الملك إلى مكان بعيد، وأسند إلى بوريللى مسئوليتها فوجدوا أن الأسلم لهم وللمدينة الترحيب بالمسلمين وقد دخل تغرى بردى المدينة والقصر الملكى الذى اتخذه مقراً له وأمن السكان وأمر منادياً ينادى فى الأنحاء بالأمان، وأن قبرص أصبحت من جملة مدن السلطان الملك الأشرف -عز نصره- وقد اتفق أعيان قبرص وتجارها على جمع أموال لأجل الأمن الذى حصلوا عليه لهم، وجاءوا إلى خدمة الأمير تغرى بردى وقدموا له بعض ما التزموا به على أن يقوموا بجمع مبالغ أخرى، فسارت الأمور بذلك سيرها الطبيعى[1].

ولكن حدث فى صبيحة يوم الجمعة تصرفا لم يعجب العينى فخطأهم فيه، ولنذكر ما حكاه هذا المؤرخ. ثم فى بكرة نهار الجمعة السادس من رمضان وصل الأمير تغرى برقش ومعه بعض مماليك السلطان ولم يسمعوا عن الأمان الذى أعطاهم الأمير تغرى بردى رأس نوبة فشرعوا فى النهب والقتل والأسر، ووقع جفل عظيم وخباط شديد، وأخذوا شيئاً كثيراً من أهل مدينة قبرص وبلادها وأسروا خلقا كثيرا وأخطأوا فيها لأن ذلك بعد الأمان غير جائز، وليس ذلك من شرائط

=المؤرخين المعاصرين الذين سمعوا مباشرة من الفاتحين خالفهم قابل حيث يذكر فى كتابه (تاريخ الخلافة العباسية فى مصر ج٢ ص ١٧٥) أن جانوس أصدر أمره لقائد الأسطول القبرصى بعدم مهاجمة المصريين، وذلك لإنقاذهم حياته. ولم يشر إلى المعركة البحرية، بما يشعر باستجابة القائد البحرى لمليكه. وهذا مخالف تماماً لإجماع المؤرخين المعاصرين للأحداث.

[1] راجع عقد الجمان ص ٢٨٣ ط الزهراء، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٥.

الغزاة. ثم بعد ذلك أطلقوا ناراً فى قصر صاحب قبرص، ولم يخرج منه الأمير تغرى بردى رأس نوبة إلا بعد جهد شديد[١] وكانت إقامتهم فى الأفقسية يومين وليلة ثم عادوا إلى الملاحة فاستراحوا بها سبعة أيام وهم يقيمون شعائر الاسلام من الآذان والصلاة والتسبيح. ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم الذى لم يقع مثله فى الاسلام من يوم غزاها معاوية بن أبى سفيان سنة نيف وعشرين من الهجرة (٢٨هـ)[٢].

وقد أرسل إليهم أهل الماغوصة يطلبون الأمان فأعطوه[٣].

ثامنا: التشاور والبشرى والعودة:

إن هذا الإنجاز العظيم الذى حققته هذه الحملة المظفرة بالجهد الكبير، والشجاعة النادرة التى أوقعت الرعب فى قلوب الذين كفروا حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون الضيعة وفيها ما بين المائة والخمسين فلا يمتنع عليهم أحد على حد قول ابن حجر بخصوص حملة ٨٢٨هـ[٤]. فما بالم بمجاهدى هذه الحملة الذين أخلصوا لله نيتهم والذين كانوا يلقون بانفسهم على سفن الأعداء رغم شدة القذف المدفعى وكثرة السهام، وما ظهر منهم فى غالب المعارك التى ذكرتها فى هذه الحملة وحتى ما وقع للملك حين وقع أكثر من مرة: وصدق الله العظيم: " وسنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله"[٥].

ولذلك بعد هذا الجهد وانتهاء مهمتهم على خير وجه تشاوروا فيما بينهم فى الوضع بعد، فرأى البعض إرسال رسول إلى السلطان يخبره بالفتح، ويستشيره فى

---

(١) عقد الجمان ص ٢٨٣- ٢٨٤ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص٩٢، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٥، المصريون فى قبرص ص ١٩-٢٠.

(٢) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٥، السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٣، عقد الجمان ص ٢٨٤ ط الزهراء.

(٣) السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٣، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٥.

(٤) انباء الغمر ج٣ ص ٣٤٧.

(٥) الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

أمر العودة على أن يظل المسلمون بقبرص حتى يرد عليهم الجواب، بينما رأى البعض الآخر أن المقام بالجزيرة قد طال بهم، وأنهم يرغبون فى العودة وبخاصة وأنهم قد حققوا هدفهم، فليس هناك مبرر لبقائهم وإذا رغب السلطان فى إرسال حملة رابعة لاستئصال بقية الفرنج فلا مانع من العودة من جديد[١]. وتم الاتفاق على إرسال البشارة والعودة إلى مصر.

وكل هذه الأحداث التى وقعت بالجزيرة من بدايتها وحتى نهايتها والسلطان متشوق لأخبار هذه الحملة التى اهتم بها كثيراً ولإنشغال الفاتحين بمهمتهم لم يرسلوا إلى السلطان أولا بأول وكل ما فعلوه أنهم حين وصلوا إلى اللمسون ووقفوا على استعداد قبرص والقوات التى معه وأرسلوا أخبارهم مع جانى بك النوروزى الذى حضر معه خمسة من الأسرى عرض عليهم الاسلام فامتثل أربعة وامتنع الخامس. وصادف وصول الرسول المبشر زيادة النيل فكان الفرح والسرور وتباشر الناس بالخير والظفر على حد قول العينى، وانشغلوا فانقطعت أخبارهم عن السلطان حتى فرغوا من مهمتهم[٢].

وكان السلطان متعطشا لأخبار جنوده فلما انتهوا أرسلوا بالنصر مع مبشر من المماليك. وهو الأمير جانبك رأس نوبة ليبشر السلطان والمسلمين بهذا الفتح العظيم وقد وصلت بالفعل بطاقة من الطينة يوم الأحد الثانى والعشرين من رمضان ٨٢٩هـ بذلك، ووصل المبشر بالفعل فى اليوم التالى وعرض الأمر على السلطان الذى كاد ان يطير من الفرح وبكى من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله[٣].

كما أنه أمر بزينة القاهرة ومصر بعامة، ودقت البشائر بالقلعة فرحاً بهذه الأخبار السارة[٤].

---

(١) انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٩، غزوات قبرس وروودس ص ١٠-١١.

(٢) عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٧٨، السلوك ج٤ ق ٢ ص ٧٢١، نزهة النفوس ج٣ ص ٨٨، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٠.

(٣) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٦، وقد رأى مؤلفه السلطان وهو يبكى من شدة الفرح.

(٤) لسلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٣، نزهة النفوس ج٣ ص ٩٣.

وأمر لكاتب السر بدر الدين بن مزهر بقراءة الكتاب بالأشرفية بخط العنبريين بالقاهرة، وبالمدرسة المؤيدية باعتبارهما أهم وسائل الإعلام في ذلك العصر- مع جامع عمرو- وحضر القراءة كاتب السر والقضاة الأربعة. وقرأ القاضي شرف الدين الحلبي الكتاب على منبر الأشرفية، وقرا الكتاب لذلك شهاب الدين بن التقي المالكي في أحد شبابيك المؤيدية المطلق على الطريق، وضج الناس في المكانين وغيرهما بالتهليل والتكبير. وفرحوا فرحاً شديداً وكان يوما مشهوداً[١] من أيام مصر وجمعاً محموداً من أهلها وسادتها.

كما أمر السلطان بالاستعداد لملاقات الفاتحين خارج مصر، احتفالاً بهم، واستقبالهم استقبال الفاتحين العظام حيث يليق ذلك الاستقبال بما قدموه خدمة لدينهم ثم لبلادهم وسلطانهم لذلك أصدر أوامره بتعيين أربعة من أمراء الطبلخانات وأربعمائة نفر من المماليك السلطانية بسرعة الاستعاد والخروج في المراكب إلى الاسكندرية ودمياط للاحتفاء بهم واستقبالهم كما رسم لهم بخيول وهجن ومأكل وإقامة[٢].

وهكذا كانت البشرى وما ارتبط بها من سعادة وفرحة غامرة ملأت أرجاء البلاد وصيحات التكبير والتهليل التي ترتفع تشق الفضاء حامدة شاكرة لربها الذي أنعم عليها بالنصر والفتح وأسر ملك قبرص الذي طالما أخاف وأرعب وأرهب والذي لم ينسى المسلمون أسرته منذ ٧٦٧هـ وحتى الآن ٨٢٩هـ.

ومع هذا الفرح الذي عم المسلمين كان النصارى غير مصدقين لهذه الأخبار من انتصار وأسر ملك قبرص وخضوع الجزيرة لسلطان المسلمين لأن أمر هذا النصر في غاية العجب من وجوده عديدة ذكرها ابن تغرى بردى[٣]، ورأيناها جديرة بالتسجيل لتوضيح أثر النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على عباده، ونعى

---

[١] عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٨٥ – ٢٨٦، نزهة النفوس ج٣ ص ٩٣، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٦.

[٢] السلوك ج٤ ق٢ ص٧٢٣، عقد الجمان ٢٨٦ ط الزهراء، نزهة النفوس ج٣ ص٩٣.

[٣] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٧.

الموقف جيدا فهو لن يتغير والتاريخ يسجل ويعيد نفسه، ولكن الضغوط أقوى من أى معنويات فى عصرنا. وهذه الوجوه المستغربة.

أولها: قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا فى غاية القلة بحيث أن العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه فى هذه المرة.

ثانيها: انه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقع مصاف.

ثالثها: أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرص من المسلمين بعد أيام كثيرة من وجوه عديدة، لا تخفى على من له ذوق.

رابعها: أنه كان يمكن هزيمة الفرنج، ولا يمكن مسك الملك وأسره أيضا.

خامسها: أن غالب العسكر إذا حصل لهم هزيمة، يعيدون الكرة أكثر من مرة، لكثرة عساكر الفرنج، وقلة العساكر المسلمة فى هذه المرة.

سادسا: أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك، وتشتت شمل الفرنج والاستيلاء على مملكتهم فى أقل من يوم، فهذا عجب العجب، كما خيروكيتا، والأفقسية وغيرهما.

وما ذلك إلا أن الله أعز الاسلام وأهله، وخذل الكفر وحزبه ، بهذا النصر العظيم الذى لم يسمع بمثله فى سائح الأعصار، ولا فرح بمثله ملك من ملوك الترك، حتى صار للملك برسباى بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامة.

وبعد هذا الكلام الطيب نعود لتوضيح مظاهر الاستقبال الحافل للمجاهدين العائدين سواء فى الاسكندرية أو دمياط او الطينة لكثرة السفن العائدة وما تحمله من أسرى وغنائم.

وقد وصلت أولى طلائع العائدين فى أول شوال ٨٢٩هـ إلى ساحل بولاق فى البر وفى النيل[١]. وفى يوم الأربعاء ثالث شوال، وصلت مراكب كثيرة من المجاهدين إلى دمياط متوجهين من الطينة إلى القاهرة[٢].

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٣، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٨.

[٢] عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٨٦، نزهة النفوس ج٣ ص ٩٣.

وفى يوم الأحد سابعة قدم الأمير تغرى بردى المحمودى، والأمير أينال الجكمى مقدما الفاتحين المجاهدين- بمن معها من العسكر، وصحبتهم جينوس بن جاك متملك قبرص ومن آسروه وسبوه من الفرنج وما غنموه وجمعوم فى مراكبهم التى توجهوا بها إلى قبرص فمروا على ساحل بولاق حتى نزلوا بالميدان الكبير فكان يوما لم يدرك مثله[١]. والحفاوة والترحيب بالعائدين مستمرة ومتواصلة، مع توفير اسباب الراحة لهم وتشديد الحراسة على سفنهم وكان وصولهم أرسالا - جماعات- كما كان خروجهم كذلك. إلا أن مكان التجمع بين بولاق والميدان الكبير بالقرب من موردة الجبس. كان هذا التجمع يتم، ويتم كذلك إقبال الناس من كل ناحية لمشاهدة هذا الموكب المهيب، المكلل بهالات النصر والفتح، وهكذا عاد الفاتحون بسلامة الله واستقر اجتماعهم بالميدان الكبير وسط حفاوات بالغات، فى انتظار الموكب الظافر إلى القلعة.

موكب النصر إلى قلعة الجبل:

تجمع المجاهدون الفاتحين فى الميدان للصعود إلى القلعة فى استعراض عسكرى كبير يتناسب مع ما حققوه. وفى يوم الأثنين الثامن من شوال الموافق ١٢ أغسطس ١٤٢٦م، استعد الموكب للتحرك، فى الوقت الذى تزاحمت فيه الجماهير من المدن والقرى التى نزحت لمشاهدة هذا الموكب المهيب وامتلأت الشوارع والشرفات بالرجال والنساء وارتفعت فى الجو أصوات زغاريطهن -زغاريد- وهتافات الرجال التى اختلطت باصوات الموسيقى.

وسوف نذكر وصف ابن تغرى بردى فهو أوضح وصف للمؤرخين المعاصرين رغم حضور العينى وابن حجر مع السابق، ولكن وصفهم لم يرق إلى وصفه: يقول[٢]: " .. طلعوا إلى القلعة، وهم جميع الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى، والغنائم بين أيديهم ومتملك قبرص الملك جانيوس بن جاك أمامهم، وهو منكس العلام ... وقد ركب الأمراء من الميدان ومعهم غالب الغزاة، وساروا من

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٤، النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٩٩.

[٢] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٢٩٩، وانباء الغمر ج٣ ص ٣٦٩.

أرض اللوق حتى خرجوا من الدقس -ميدان رمسيس- ودخلوا من باب القنطرة، وشقوا القاهرة إلى باب زويلة، وتوجهوا من الصليبة من تحت الخانقاة السيخونية من سويقة منعم إلى الرميلة، والخلق فى طول هذه المواضع تزدحم بحيث أن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريط النساء التى صفت على حوانيت القاهرة بالشوارع من غير أن يندبهم أحد لذلك ... هذا مع تخليق الزعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى فى الأزقة. وفى الجملة كان هذا اليوم من الأيام التى لم نرى قبلها ولا سمعنا بمثلها.

وساروا على هذه الصفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرج وهم مع ذلك فى ترتيب فى مشيهم يذهب العقل فقدموا الفرسان أولاً وبعدهم طوائف الرجالة من المطوعة وعشران البلاد الشامية وعربان البلاد وزعر القاهرة ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رؤوس الحمالين، وعلى ظهور الجمال والخيول والحمير [١].

وتاج الملك فى المحمول على الرؤس واعلامه منكسة، وخيله تقادين وراء الغنائم ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج ثم من بعدهم السبى من النساء والصغار وهم زيادة عن ألف أسير تقريبا سوى ما ذهب فى البلاد والقرى مع المطوعة وغيرهم[٢]. ومن وراء الأسرى جينوس ملك قبرص وهو راكب على بغل -قيل أعرج- بقيد حديد، وأركب معه إثنان من خواصه وعن يمينه الأمير إينال الجكمى أمير مجلس، وأمامه قرا مراد خجا الشعبانى أحد مقدمى الألوف، وعن يسار الأمير تغرى بردى المحمودى رأس نوبة النوب وأمامه الأمير حسين المدعو تغرى برقش أحد مقدمى الألوف. وأمامهم إمراء الطبلخانات والعشرات على مراتبهم. وأمراء البلاد الشامية.

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٤.

[٢] يذكر ابن حجر أن عدد الأسرى الذين مسكوهم حتى العودة ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس، انباء الغمر ج٣ ص ٣٦٩.

وقد ساروا على هذه الصفة حتى طلعوا إلى قلعة الجبل، فأنزل جينوس عن البغل وكشف رأسه عند باب المدرج، والحجاب والأمراء فى صفوف متراصة من هذا الباب التى داخل الحوش السلطانى[١]. ولما دخل جينوس من الباب قبل الأرض ثم قام ومشى ومعه الأمراء وهو يرسف فى قيوده، على مهل لكثرة الزحام. هذا والملك الأشرف برسباى قد جلس بالمقعد على باب البحرة مقابل لباب الحوش السلطانى فى موكب عظيم من الأمراء والخاصكية وشريف مكة بركات بن حسن بن عجلان- وهو جالس فوق الأمراء- ورسل خوندكار مراد بن عثمان متملك بلاد الروم، ورسل صاحب تونس من بلاد المغرب ورسول الأمير عذرا بن نعير أمير العرب بالشام[٢]. وكان اتفاق حضور هؤلاء من المستغرب على حد قول ابن حجر[٣].

واستمر جينوس فى تقدمه حتى وقف امام السلطان فلما رآه عفر وجهه فى التراب وقبل الأرض أكثر من مرة، ولذهوله مما رأى وما وقع له ومنه لم يتمالك نفسه فسقط مغشيا عليه فلما أفاق قبل الأرض وأوقف ساعة بالقرب من السلطان ليتحقق شكله.

كل هذا والجاويشية تصيح، والشبابة السلطانية تزعق، والأوزان يضرب على عادته -الموسيقى- ورءوس النوب والحجاب تهول الناس بالعصى من كثرة العساكر والناس بالجوش. هذا مع ما الناس فيه من التهليل والتكبير بزقاقات القلعة، وأطباق المماليك السلطانية وغيرها[٤].

وقد أمر السلطان بجينوس أن يعوق فى برج من أبراج القلعة،ومعه ولده وبعض أعيان دولته فنفذ على الفور[٥].

---

[١] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٥.

[٢] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٣٠٠.

[٣] انباء الغمر ج٣ ص ٣٧٠.

[٤] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ٣٠١، المصريون فى قبرص ص٢١، قبرس والحروب.

[٥] راجع عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٨٦ ط الزهراء.

ثم طلب مقدمى العساكر والخاصبكة فقدم كل واحد منهم على مركب فخلع عليهم على حسب مراتبهم فقد تقدم مقدمو الألوف وهم خمسة؛ أربعة من مصر وواحد من الشام، فقيد لكل واحد "فرش بقماش من ذهب" ثم خلع على كل واحد بأطلسن متمرا. ثم تقدم أمراء الطبلخانات من مصر والشام وخلع على كل واحد فوقانى كمخا أحمروأخضر وبنفسجى بطرز زركش على قدر مراتبهم ثم أمراء العشرات، وخلع على كل مقدم مركب من الخاصبكة والأجناد وغيرهم، فكان هذا اليوم يوما عظيماً جليلاً لم يقع مثله فى سائر الأعصار؛ أعز الله تعالى فيه دين الاسلام وأيده، وخذل فيه الكفر وبدده[١].

وبعد هذا الاحتفال المهيب الذى طال انتظاره والذى تلهف السلطان على وصوله حتى أنه كان يرسل رسله تباعا للإستعجال حتى وصلوا قرب الظهر من شدة الزحام كما أشرت وتم العرض الخلع والتهانى، فانفض الموكب. ونزل كل واحد إلى داره والناس فى الشوارع والحارات والدروب فى تهانى وتخليق بالزعفران فرحاً وسروراً مقدوم المجاهدين حتى الصباح كما هى عادة المصريين عند إحراز النصر الذى ندعو الله أن يتكرر كثيرا ليفرح الناس على كل فترات من التاريخ والأحداث.

وفى الصباح التالى ليوم الاحتفال جمع السلطان التجار، وأمرهم بقويم السبى والغنائم تقويما حسنا ويفرق على الغزاة على قدر أنصبائهم[٢] وفرقوا من السبى جماعة على الأمراء ليفرقوه على من كان معهم. كما أمر يم الأربعاء (عاشر شوال) بان تباع بقية الأسرى فى الرحبة التى قدام بيت النائب بالقلعة فبطلوا سائر الأسواق أيضا لأجل بيع البضائع والأمتعة والأقمشة من الغنائم[٣].

---

[١] كان عدد الذين خلع عليهم كثير جدا، أكثر من مائتين. النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٣٦ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٢م. وسكون الاعتماد على هذه الطبعة من هنا.

[٢] يذكر ابن اياس أن الثمن حمل إلى بيت المال. فلعله يقصد بعد توزيع نصيب الفاتحين عليهم، بدائع الزهور ج٢ ص ١٠٩ تحقيق محمد مصطفى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

[٣] عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٨٦– ٢٨٧ ط الزهراء، السلوك ج٤ ق٢ ص٧٢٦.

يقول ابن إياس: " ... وقد باع السلطان جماعة كثيرة ممن أسر من الفرنج من رجال ونساء ... وكان من جملة الأسرى الذين ابتاعوا الأمير برد بك الذى صار دوادار الثانى – مهر الأشرف اينال الأحرود– وجماعة كثيرة من الأسرى صاروا أمراء وخاصكية[١].

لقاء تحديد المصير:

يبدو أن نشوة النصر جعلت برسباى متعجلا فى الحصول على أموال جينوس لذلك أرسل إليه فى سجنه يعرض عليه افتداء نفسه من الجيش والأسر بالمال فما حاجته إلى سجنه وإمكانية الاستفادة من ورائه قائمة؟ ولما وصل رسول السلطان إلى الملك وعرض عليه الأمر أظهر تجلدا على حد قول المقريزى: وقال: ما لى إلا روحى وهى بيدكم وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدى إلى مال أعطيه لكم[٢]؟ وكأنه فهم نفسية السلطان وهدفه. فكان هذا رده الذى لم يعجب برسباى بالطبع ولذلك تكرر العرض وهو يأبى فما كان من السلطان إلا أن أمر بإحضاره إلى الحوش يوم الأربعاء.

حضر جينوس إلى الحوش السلطانى حيث كان السلطان برسباى جالساً بالمقعد الذى كان عليه بالأمس وقد امتلأ الحوش بالأسرى القبارصة المعروضين للبيع فلما رأوا ملكهم وقد قبل الأرض لسلطان مصر إلا وقد إنتابتهم حالة من الصراخ والهياج، وأخذوا يحثون التراب على روءسهم، فقد كانوا غير مصدقين للأخبار التى يتناقلها الفاتحون بأسره لمعرفتهم باستعدادتهم وقوتهم السابقة. فلما عاينوا الملك حقيقة فى هذا الموقف الصعب لم يتمالكوا مشاعرهم وكان السلطان ينظر اليهم وفى فكره أشياء كثيرة ومشاعر متعددة لما بين الملك وأتباعه من ناحية وشعورهم وتقديرهم من ناحية فهل يحدث ذلك لمن يلى أمر مصر منهم لو كان العكس؟ لذلك لا نستغرب ما يقع لأحد رؤساء العرب فى عصرنا.

---

[١] بدائع الزهور ج٢ ص ١٠٩.

[٢] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٦، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٣٧ (الكتب العلمية).

على كل حال وقف كبير تراجمة السلطان برسباى -وكان يهوديا من أشبيلية قد أسلم- يتحدث مع الملك على لسان السلطان فى أمر المال الذى يفدى به نفسه وهو يعتذر بعدم وجود مال لديه. ولكن قناصل الدول الأوربية الذين حضروا معه بالحوش تدخلوا فى هذا اللقاء للحيلولة دون تحقيق السلطان تهديده بالقتل لجينوس إذا لم يفتدى نفسه بالمال. ولكنهم لم يحددوا المبلغ الذى يدفعونه وأقروا فقط بتوسطهم فى الأمر فقبل السلطان وساطتهم مبدئاً على أن تجرى المفاوضات بشأن المبلغ المطلوب. فأعاد أركماش المؤيدى الخاصكى الملك إلى سجنهتحت حراسته، وإن خفف السلطان من القيود التى كبلته فقد رسمله ببدلتين من قماشه، وأمر له بعشرين رطل لحم فى كل يوم، وستة أطيار دجاج، وخمسمائة درهم فلوساً برسم حوائج الطعام، وفسح له فى الاجتماع بمن يختار من الفرنج وغيرهم وأدخل إليه جماعة من حواشيه لخدمته[١].

وهذا التغير فى المعاملة ما كان له أن يتم لولا تدخل القناصل وعرضهم الموافقة على دفع الفدية المناسبةفى اللقاء الحاسم، فهو بذلك سيحصل على الفدية وإن أرادها برسباى خمسمائة ألف دينار وهو مبلغ كبير بالطبع، ربما لم يستطع الملك تدبيره ولذلك فتح باب التفاوض فى المبلغ، وترددت الرسل والمترحمين بين الطرفين واستغرقت المراسلات عدة أيام حتى تم الاتفاق على مائتى ألف دينار يدفع منها مائة ألف عاجلة والباقية بعد عودته إلى ملكه كما يلزمه دفع عشرين ألف دينار جزية سنوية وأن يكفى عنه طائفة البندقية وطائفة الكيتلان من الفرنج[٢]. وقد تم الاتفاق على ذلك وانعقد الصلح وحقق كل طرف بعض المكاسب المطلوبة، وأن يكون جينوس نائبا عن السلطان فى حكم الجزيرة[٣].

---

(١) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٣٨.

(٢) نفسه، السلوك ج٤ ق٢ ص

(٣) انباء الغمر ج٣ ص ٣٧٠، زبدة كشف الممالك ص ١٤٥.

وقد أرسل برسباى مورسن سوارز Mosens suarrz إلى قبرص لجمع المال اللازم[١]. وقد أخذ عليه العهود بالعودة ثانية بالمال، ولما وافق على ذلك أعطاه أمانا بالسفر وقد التقى بأسقف نيقوسيا -شقيق الملك- وأخبره بما حدث فما كان منه الا أن أرسل إلى ملوك الغرب يطلب مساعدتهم فى الفدية المقررة وقد عاد موسن سوارز بثلاثمائة ألف دوكات ومعه بعض رجال قبرص وراهب رودس[٢].

وقد ظل جينوس خلال المدة التى استغرقتها الرحلة وتجهيز الفدية من شوال حتى ربيع الأول سنة ٨٣٠ هـ -خمسة أشهر- فى ضيافة برسباى وله حرية التنقل المحدود، ولقاء من يشاء من الفرنج -كما سبق- فلما تسلم السلطان المبلغ المتفق عليه مع سبعين ألفا توزع بين حاشية السلطان- استقبله برسباى استقبالا غير السابق فقد خلع عليه لباس التشريف وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنبوش زركش. ونزل إلى القاهرة فى موكب وأقام بدار أعدت له فى الكافورية واستمرار أركماش المؤيدى حرس الشرف له عكس ما كان قبل وصار الملك يركب من بيته ويمر بشوارع القاهرة ويزور كنائس النصارى ومعابدهم وكان بصحبته الأمير تاج الوالى فى المتنزهات التى يقصدها جينوس وعملت له الضيافات ومن تقوم بخدمته، وسمح للنصارى بالقدوم عليه وكذلك الكتاب والقناصل[٣].

وقد ظل فى هذا الجو من الحفاوة والتكريم وحسن الضيافة وحرية اللقاءات عدة أيام ثم طلب الأذن من السلطان بالرحيل إلى قبرص فأذن له السلطان وخلع عليه فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٣٠هـ. وحدد له أميراً يصحبه فى سفره إلى الاسكندرية حيث استقبله نائبها الأمير قبغا التمرازى استقبالا حافلاً شارك

---

(١) وسوارز هذا خاصة جينوس أسر معه فى خيروكيتا وهو قشتالى الأصل. ورغم انه أسير فقد وافق السلطان على قيامه بهذه المهمة ما دام الملك فى مصر.

(٢) المصريون فى قبرص ص ٢٤.

(٣) راجع عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٨٧، السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٢٨، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٤٠، نزهة النفوس ج٣ ص ٩٤.

فيه الجند المصرى بالثغر فى تظاهرة عسكرية شعبية حيث اصطف الجميع فى شوارع المدينة – ٢٥٠٠ جندى مملوكى، وأعداد لا تحصى من المواطنين– حتى لقد اعجب الملك من كثرة الجموع المحتشدة وقال: والله عن كل ما فى بلاد الفرنج ما يقاوم أهل الإسكندرية وحدهم[١].

وبعد إقامته فى الأسكندرية عدة أيام وأتم عدة لقاءات عاد إلى قبرص وبصحبته رسل رودس الذين وصلوا إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٨٣٠هـ يطلبون الأمان من السلطان، وأن لا يفكر فى غزوهم[٢]. وكان معهم هدية قومت بستمائة دينار[٣]. عاد ملك قبرص إلى بلاده وقد صارت من ممتلكات مصر، ليحكمها نائبا عن سلطان مصر، وليقدم الجزيةالسنوية ما دام باقيا على دينه وأهل جزيرته، وهذا دليل ساطع على أن المسلمين لم يفرضوا الاسلام بالقوة على أحد وأن السيف ليس وسيلتهم فى الإقناع ولا الشعارات البراقة الخادعة التى لا تطبق إلا فى عقول الذين يثيرونها فى عصرنا، نكاية وحقداً وتسلطاً وصلفاً، فاللهم رحماك.

ثمار الفتح:

لقد كان فتح قبرص فى رمضان ٨٢٩هـ حدثاً فريداً فى بابه، لم يقع مثله من حيث الأهمية والمكانة فى عصر سلاطين المماليك لأنهم فى العصر البحرى اهتموا بالتصدى للصليبين والزحف المغولى، وانشغل الجراكسة بالتركمان والمغول، ولم تتح مثل هذه الفرصة أولم تقع إلا فى عهد الأشرف برسباى فكان النصر حليفه والفتح باب سعادته وشهرته، حتى لقد كان هذا الفتح هو القبس الوحيد الذ أضاء سماء العصر المملوكى فهى الأرض الوحيدة التى أضيفت إلى مملكتهم

---

[١] انباء الغمر ج٣ ص ٣٧١، تاريخ السلطان قايتباى ص ٤٢ب.

[٢] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٤١. ويذكر أن أحد الرسل كان يضع الصليب على صدره، وأنه ركب فرسا وأنه تبل الأرض بين يدى السلطان.

[٣] بدائع الزهور ج٢ ص ١١٣.

فاعتبر أهم ثمار الفتح كما ضمنت للدولة مورداً ماليا متجدداً أو متدفقاً[١] كان له بلا شك أثره فى مسيرة الدولة ثم ضمن لها كذلك حماية لشواطئها من غارات القراصنة التى انتشرت فى الفترة السابقة ومدت بدر الإسلام والعروبة إلى أوربا من جديد بعد توقف فأخذ الإسلام يتسلسل رويدا رويدا بين سكان الجزيرة، ولا يزال الإسلام بقبرص حتى الآن مع النصرانية واللينوباكى، وهى خليط من الإسلام والنصرانية[٢].

كما كان من ثمار الفتح ذلك الموكب السلطانى الذى اعتبر أعظم المواكب السلطانية فى عصر المماليك وغيرهم، وقل أن يقع مثله لا قبل برسباى ولا بعده، فقد أعز الله الإسلام وأهله وخذل الكفر وجنده بهذا النصر العظيم الذى لم يسمع بمثله فى سالف الأعصار ولا فرح بمثله ملك من ملوك الترك ولقد صار الملك الأشرف برسباى بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامة[٣].

كما أن تاج ملك قبرص علق على باب المدرسة الأشرفية بالعنبرانيين، وظل كذلك حتى عصر ابن اياس (ت ٩٣٠هـ).

وكان من ثماره أيضا ما تفتقت عنه قرائح الشعراء الذين سجلوا هذا الحدث فى شعرهم وقد أنشد الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط – أحد أعيان موقعى الدست بالديار المصرية– قصيدة مكونة من ثلاثة وسبعين بيتاً بين يدى السلطان من بحر الكامل مطلعها:

بشراك يا ملك المليك الأشرفى ∴ بفتوح قبرس بالحسام المشرفى
فتح بشهر الصوم تم له فيا ∴ لك أشرف فى أشرف فى أشرف
فتح تفتحت السموات العلى ∴ من أجله بالنصر واللطف الخفى

---

(١) التزم بعشرين ألف دينار جزية سنوية. النجوم ج١٤ ص ١٣٨، بدائع الزهور ج٢ ص ١٠٩ مع ألفى ثوب من الصوف وغير ذلك من الجوخ وأنواع الهدية الفاخرة.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين م٧ ص ٦٠٣.

(٣) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٣٢. ونفس المعنى ذكره ابن اياس فى بدائع الزهور ج٢ ص ١٠٩.

والله حف جنـــــوده بمـــلائك ∴ عاداتها التأييد وهـــو بها حفى
أحيى الجهاد وكان قبل على شفا ∴ من تركه وبسيفه الماضى شفا
قالت وما تلك الديار وقـــد عفـــا ∴ انجيلها أهلاً بأهـــل المصحف

ومنـــها:-

الأشرف السلطان أشـــــرف مالك ∴ لولاه أنفس ملكه لم تشرف
هو مكتف بالله احكم قـــــــادر ∴ راض لآثـــار النبوة مقتفى
حامى حمى الحرمين بيت الله الـــ ∴ قبر الشريف لزائر ومطوف

وجاء فى آخرها:-

لم تخلف الأيام مثلك فاتكاً ∴ ملكا ومثلى شاعرا لم تخلف
فيك التقى والعدل والإحسان فى ∴ كل الرعية والوفا والفضل فى[١]

تاسعا: قـبرص تابعة لمصـر:

عاد جينوس إلى قبرص تابعا لبرسباى ونائبا عنه فى حكم قبرص، وأحـد أتباعه وقد حافظ على علاقة التبعية قولاً وعملاً. فكان يرسل إلى السلطان بأخبـار استعدادت الفرنج الموجهة ضد مصر. كما استمر مواظباً علـى إرســال الجزيـة السنوية المقررة عليه حتـى وفاتـه التـى وصـل الخبـر بهـا فـى ذى القعـدة ٨٣٥هـ/١٤٣١م. فبعد عودته بعدة أشهر أرسل إلى السلطان برسباى بان الكيتلان (القطلان) يستعدون للإغارة على مدينة الإسكندرية. فاتخذت الاستعدادت لذلك، وقد أثمرت بالفعل هذه التنبيهات.

ففى رمضان أو أول شوال سنة ٨٣١هـ قدم مركبان مـن عنـد الإفـرنج القطلان للهجوم على الاسكندرية بغتة ولكنهم وجدوا أهلها فى يقظة واستعداد نتيجة لتحذير ملك قبرص لهم، فلم يتحقق هدفهم، وردهم الله خائبين[٢]. وإن ذكر العينـى أن عدة مراكب وصلت الميناء بالفعل وأحرقت مركب داود المغربى وأخذوا جملـة

---

[١] راجع انباء الغمر ج٣ ص ٣٧١. النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٣١، الضوء اللامع للسـخاوى ج٣ ص ٨-٩.

[٢] السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٨٠، انباء الغمر ج٣ ص ٤٠٥.

مستكثرة فلما جاء الخبر بذلك إلى السلطان جهز الأمراء للتوجه إلى الاسكندرية ومعهم خمسون مملوكاً للدفاع عنها ولكنهم لم يسافروا لوصول الأخبار بعودة المراكب[١].

وبلغ من حرص جينوس على الإلتزام بما تم الاتفاق عليه أنه أرسل بعد عودته بأشهر قليلة أرسل هدية إلى السلطان مع سبعة من أهل قبرص اعتنق اثنان منهم الاسلام، بينما انخرط الباقون فى خدمة الجيش المصرى[٢].

وفى ثالث المحرم سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م قد المحمل من جزيرة قبرص، ومبلغه خمسون ألف دينار مشخصة لرسم السلطان بضربها دنانير أشرفية، فضربت بقلعة الجبل والسلطان ينظر إليها إلى أن تمت[٣] وقد أشرنا إليها قبل ذلك.

وفى شهر صفر ٨٣٢هـ وصل إلى الاسكندرية قاصد صاحب قبرص وصحبته الجزية المقررة عليه ألف وثمانمائة ثوب من الصوف الخاص الملونة، قيل من المال المقرر عليه المتأخر، وقد حمل منها ثمانمائة ثوب صوف إلى دمشق. فطرح الثوب منها بثمانية عشر ديناراً على التجار وديناراً كلفه، فباعوا أحسنها باثنى عشر ديناراً، وخسر كل ثوب سبعة دنانير[٤].

وظل هذا دأب جينوس حتى وفاته ٨٣٥هـ حين وصل الخبر إلى مصر فى ذى القعدة منها[٥]. وعين السلطان شخصاً من الأعيان ومعه ستون مملوكاً للتوجه إلى قبرص ومعهم خلعة لجوان بن جينوس باستقراره فى مملكة قبرص عوضاً عن والده، نيابة عن السلطان وهذا الاجراء استمرار لتبعية الجزيرة لمصر،

---

(١) عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٣٣٥ ط الزهراء. ونقله الصيرفى فى نزهة النفوس ج٣ ص ١٣٣.

(٢) المصريون فى قبرص ص ٢٥.

(٣) النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٤٧، انباء الغمر ج٣ ص٣٩٧.

(٤) السلوك ج٤ ق٢ ص ٧٩٢، عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٣٢٠، نزهة النفوس ج٣ ص ١٤٦.

(٥) السلوك ج٤ ق٢ ص ٨٧٣، النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٩٥، عقد الجمان ص٤٢٣ ط الزهراء.

ويطالبه كذلك بدفع ما تأخر على أبيه وهو أربعة وعشرون ألف دينار وبما التزم به فى كل سنة وهو خمسة آلاف دينار. وقد تترك الركب من مصر فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٨٣٥هـ[1] حيث ركبوا سفينتين (شينين).

وقد وصلوا يوم السبت عاشر المحرم، ثم توجهوا براً إلى الأفقسية العاصمة. فطلع للقائهم وزير الملك جوان؛ ومعه وجوه المملكة واستمروا فى خدمتهم حتى أنزلوهم خارج المدينة فباتوا بها، ثم أصبحوا من الغد يوم الاثنين الثانى عشر من محرم فدخلوا على الملك جوان وهو فى قصره، فقام على أقدامه، ومشى إليهم فسلموا عليه سلاما يليق به وأوصلوه كتاب السلطان وهو قائم على قدميه، وبلغوه الرسالة فأذعن بالسمع والطاعة وقال: أنا مملوك السلطان ونائب عنه ثم حلفوه على الولاء والطاعة للسلطان، والقيام بالتزامات أبيه، فأذعن لذلك واستدعى القسس وحلفه على الوفاء والطاعة للسلطان والقيام بما يجب عليه من الجزية والتقدمة، وكف الأذى عن المسلمين كل ذلك وهو قائم على قدميه، فلما انتهى من ذلك أفيض عليه التشريف السلطانى المجهز له، وتمت اجراءات القولية الرسمية له، وإن كان قد قام بمهمته العملية بعد وفاة والده، ولكنها لا تعتبر رسمية إلا بعد الخلع عليه بها.

ثم ركب الوفد وتجول فى المدينة التى تؤدى فيها الأمان والاطمئنان وطاعة السلطان، ثم أنزلوا فى دار قد أعدت لهم، وأجرى لهم، ما يليق بهم من المآكل والمشارب وقدمت لهم هدايا كل على حسب درجته ومكانته. وقد أقاموا عشرة أيام فى كرم الضيافة والسرور بمقدمهم، والولاء لسلطان مصر.

وخلال مدة الإقامة كان الاستعداد على قدم وساق لتدبير ما التزم به، وتجهيز هدية قيمة تليق بمقام السلطان المصرى، فقد جهزوا سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار وذلك مما تأخر على أبيه، وظهر معه خصم بأربعة آلاف

---

[1] النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٩٥، السلوك ج٤ ق٢ ص ٨٧٤، انباء الغمر ج٣ ص٤٨١، بدائع الزهور ج٢ ص ١٤٣.

دينار ووعد بحمل عشرة آلاف دينار بعد سنة، وأرسل أربعين ثوبا من الصوف برسم الهدية للسلطان.

ولما انتهى من إعداد ذلك شرع فى تجهيزهم وتسفيرهم ثم تحركوا من العاصمة بعد الأيام العشرة وتوجهوا إلى اللمسون (ليماسول) ثم ركبوا البحر متوجهين إلى دمياط فالقاهرة وقد استغرقت رحلة البحر ستة أيام، فقد وصلوا القاهرة فى السابع من صفر سنة ٨٣٦هـ وطلعوا القلعة والتقوا بالسلطان وشرحوا له الموقف بتمامه، فسر غاية السرور بما حدث، وقبل الهدية وتصرف فى مقابل الجزية واطمأن الناس إلى وضع قبرص فقد كثرت الاشاعات بعد موت جينوس وتولية جوان أنه خرج عن طاعة مصر، دفع الجزية. فكان ما حدث عكس ذلك تماما. فلذلك كان السرور، كما أخبره الوفد بأن جوان يطلب تعيين نائب من جهة السلطان على باقى الجزيرة، فأرسل اليه برسباى أحد الأمراء ومعه أربعون مملوكا[١].

وقد ظل ملك قبرص على طاعته وولائه للسلطان يدفع الجزية رغم اختلاف أحوال قبرص[٢]، ففى سنة ٨٣٧هـ قدم المحمل من قبرص فى البحر على العادة فى كل سنة[٣] وفى سنة ٨٤٧هـ جاء حمل صاحب قبرص حملة أثواب صوف[٤]. حتى وفاة برسباى فى ثالث عشر ذى الحجة ٨٤١هـ، وإن ظلت العلاقة كما هى حتى نهاية دولة المماليك على يد العثمانيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، حينما خضعت مصر والشام لنفوذهم فانسحبت هذه التبعية على الجزيرة كذلك.

وهكذا ظهرت صفحة مشرقة من أمجاد الماضى سجلها التاريخ لأحد سلاطين عصر المماليك المشهورين، الذى أضاف بسياسته وجهود جنوده منطقة

---

(١) راجع فى ذلك النجوم الزاهرة ج١٤ ص ١٩٧- ١٩٨، السلوك ج٤ ق٢ ص٨٨٣، نزهة النفوس ج٣ ص٢٥٠-٢٥١، حوليات دمشقية لمؤلف مجهول ص٤٣.

(٢) انباء الغمر ج ٣ ص ٤٨١، نزهة النفوس ج٣ ص ٢٥١.

(٣) حوليات دمشقية لمؤلف مجهول ص ٩٩.

(٤) عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٦٠٢ ط الزهراء.

جديدة إلى نفوذ دولة مصر فى عصر قوتها وازدهارها، وإسهامها بقسط وافر فى الحضارة الانسانية وبقوة الدفع الذاتى المستمر والعطاء المتجدد الذى طبع عليه شعب مصر فى تماسك وتآلف على مر الزمن.

فهى صفحة مجد مشرقة فى سجل التاريخ الذى يطالبنا بالمزيد.

أ.د/ عبد الرازق الطنطاوى القرموط